٦٨- سورة القلم

وزارة المعارف العمومية

تفسير جزء تبارك

وهو الجزء التاسع و العشرين من الكتاب الكريم

تأليف العالم الجليل

الشيخ عبد القادر المغربي

نائب رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية بالقاهرة

قام بتصحيحه و علق عليه بتكليف من وزارة المعارف المصرية

علي محمد حسب الله

استاذ العلوم الشرعية المساعد بكلية دار العلوم (جامعة فؤاد الأول بالقاهرة)

المطبعة الاميرية بالقاهرة

١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م

سورة القلم مكية

وهى ثنتان وخمسون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

نٓ وَٱلْقَلَمِ

المراد من ﴿ن﴾ أحد حروف الهجاء : افتتح تعالى هذه السورة بحرف النون ثم أقسم بالقلم . كما افتتح سورة أخرى بحرف القاف ثم أقسم بالقرآن مذ قال تعالى : (ق والقرآن المجيد) والدليل على أن المراد بالنون هنا حرف الهجاء المعروف لا مسمى آخر كالحوت أو الدواة — كتابتها بصورة الحرف هكذا [نْ] وسكون آخرها ، فلم يقل (نونٌ أو نوناً أو نونٍ) بالتنوين . ولو كان المراد بها الحوت أو الدواة ، لكُتبت بالحروف هكذا [نون] ولَدَخلت عليها علامات الإعراب كما دخلت على ﴿والقلم﴾ المجرورة بحرف القسم . وحجة من قال : إن المراد بنون فى الآية (الدواة) — أن النون ذكر مع القلم والتسطير به ، فمذ أقسم البارى سبحانه بهما (أى بالقلم و بما يسطرون) ناسب أن يقرن بهما ثالثهما الذى هو الدواة . أمّا النون بمعنى الحوت فيبعد أن يكون مراداً من النون فى الآية ، إذ لا نسب بينه و بين القلم والتسطير ، ولا علاقة له بهما ، غير أن المفسر النيسابورى روى عن بعض الثقات أن أصحاب السحر[1] يستخرجون من بعض الحيتان شيئا أسود كالنِّقس [أى الحبر] أو أشدّ سواداً منه يكتبون به ، فيمكن أن يكون المراد من (نون) فى الآية ذلك الحبر[2] الأسود المستخرج من الحوت المذكور [وقيل هو الأخطبوط] وخصه بالذكر من بين سائر أنواع الحبر المعروفة يومئذ لشدّة سواده أولا ولمراعاة رءوس الآى ثانيا .

(١) أراد بهم رجال الصناعة أو علماء الكيمياء كما نسميهم اليوم .

(٢) و إذا أريد من (النون) الحبر على تأويل الحوت جاز أن يراد من الحبر الدواة كما ذهب إليه الحسن البصرى . وقد جاء فى تعريفات السيد الجرجانى ما نصه (النون هو العلم الإجمالى يريد به الدواة ، فان الحروف التى هى صور العلم موجودة فى مدادها إجمالا وفى قوله تعالى (ن والقلم) هو العلم الإجمالى فى الحضرة الأحدية ، والقلم حضرة التفصيل) وهذا ما جعل المستشرق كازيمرسكى مترجم القرآن يفسر فى معجمه العربى الفرنسى النون بقوله : (Résumé de toutes les science) أى خلاصة جميع العلوم . اهـ . المؤلف .

ويقال فى تأويل (نـ) مرادا بها حرف الهجاء المعروف ما قيل فى تأويل سائر حروف الهجاء التى افتتحت بها بعض السور ، وأحسن الأقوال فيها أنه تعالى ذكرها لتنبيه المشركين إلى أن القرآن إنما ألِّفت كلماته من جنس ما تؤلف منه كلماتهم ، أى من حروف الهجاء العربية المعروفة لديهم والتى تتلقنها صبيتهم ؛ فلم ينزل القرآن بكلمات خارقة للعادة فى حروفها ، مباينة للمألوف فى مواد تركيبها ، فكيف مع هذا عجزوا عن الإتيان بمثله ؟ وكاعوا[1] عن تركيب جُمَلٍ بجمله ؟ لا جرم أن يكون تعديد حروف الهجاء على هـذه الصورة فى فواتح السور من أبلغ الأساليب فى التحدّى والمنازلة ، وأعجبها فى التقريع والمعاتبة .

والأصل فى القسم أن يكون لتأكيد الخبر فى نفس المخاطب ، وإزالة الريب الذى يوشك أن يكون خامره فى صـدق الحالف ، هذا هو الأصـل فى القسم ، ولكنه قد يتضمن أحيانا تنبيه المخاطبين إلى شرف المقسم به ، وما لهم من ضروب النفع فيه ، وأكثر ما يكون هـذا المعنى فى الأقسام الواردة فى كلام الله تعالى ، ففى سورة العصر حلف بالعصر وهو الوقت تنبيها للبشر إلى عِظم فائدته ، وأنه ممـا لا يحسن التفريط فيه بإضاعته فى البطالة واللهو . ومثل ذلك حلفه تعالى بالقرآن ، والسماء ، والليل ، والنهار ، والفجر ، والضحى .

قال أستاذنا الشيخ محمد عبده فى تفسير قوله تعالى (والنازعات غرقا) " إذا رجعت إلى جميع ما أقسم الله به وجدته إما شيئا أنكره بعض الناس ، أو احتقره لغفلته عن فائدته ، أو ذهل عن موضع العبرة فيه ، وعمى عن حكمة الله فى خلقه ، أو انعكس عليه الرأى فى أمره فاعتقد فيه غير الحق الذى قرّر الله شأنه عليه ؛ فيقسم الله به إما لتقرير وجوده فى عقل من ينكره ، أو تعظيم شأنه فى نفس من يحتقره ، أو تنبيه الشعور إلى ما فيه عند من لا يذكره ، أو لقلب الاعتقاد فى قلب من أضله الوهم ، أو خانه الفهم اهـ " .

أما الحلف بالقلم فهو حَلِفٌ بأعظم نعمةٍ أنعم الله بها على نوع الإنسان ، بعد نعمة النطق والبيان : نعمة النطق مازته عن العجماوات ، ونعمة القـلم نشرت بين أفراده أنواع الشرائع ، وحقـائق المعلومات ، فلولا القلم لم يقم دين ولا كان عمران ، وإذا أردت أن تقيس حالة جماعات البشر من حيث الرقىّ فى معارج المدنية فلا مقياس أدقّ من انتشار فن الكتابة فيهم ؛ فهو الذى يحدّد درجة كل شعبٍ من الحياة الاجتماعية ، ويضعه موضعه اللائق به فى مصافّ الأمم الحية .

(١) أى تقهقروا ونكصوا .

وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾

وليس المراد من القلم فى الآية الأداة المعروفة من حيث ذاتها، بل من حيث عملها والأثر الذى ينشأ عنها ، أعنى نقل الأفكار والمعانى من نفس شخص إلى نفس شخص آخر . يدل على هـذا قوله تعـالى ﴿ وما يسطرون ﴾ بعـد قوله (والقلم) : كأنه يقول أحلف بالقلم و بالتسطير الذى يفعله الكاتبون . فمـا فى قوله (وما يسطرون) مصدرية . فهو تعـالى يحلف بفن الكتابة التى تعددت وسائطها ، فكان منها القلم وآلات الطباعة وسائر أدوات الكتابة ، كالنسّاخة المعروفة باسم " تايپ رايتر" وكل ما يمكن أن يخترعه البشر ويستعملوه فى الوصول إلى هـذا الغرض . ولا نزاع فى أن هذه المدنية العبقرية والعمران العجيب الذى توصلت إليه الأمم فى عصرنا الحاضر إنما هو نتيجة من نتائج فن الطباعة واستعمال المطابع المدهشة فى سرعتها ، و إتقان صنعها .

فانظر إلى قوله تعالى (وما يسطرون) ما أحسنه !! وما ألطف إيراده فى هذا المقام !! وهو فى الحسن يشبه قوله تعالى : (ويخلق مالا تعلمون) بعد قوله : (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة) ، فهو تعالى يمن على البشر أن هداهم إلى وسائط النقل ، فذكر الوسائط الحيوانية المعروفة لديهم فى عهد التنزيل ، ثم أشار إلى أن هناك وسائط أخرى يخلقها ولم يعلمها البشر بعد ، فكان من هـذه الوسائط السكك الحديدية والأوتوموبيلات وسائر ضروب السـيارات ، ولا تنس أدوات النقل التى تسير على وجه المـاء ، كالسفن والوابورات ، أو تخترق طبقـات الهواء ، كالمنـاطيد والطيـارات . وما يدرينا أن سيخلق الله وسائط أخرى للنقل غير ما ذكر ، يهدى إليها البشر ، وتكون أعجب من تلك وأعجل ، وأدق فى الصنع وأمثل .

هذه السورة أنزلت فى مكة . وآياتهـا الأول من أول ما أنزل عليه صلى الله عليه وسلم بعد سورة (إقرأ باسم ربك) .

لمـا نزل جبريل على النبى فى غار حراء وقال له اقرأ قال ما أنا بقارئ ، ثم لقنه سورة (اقرأ باسم ربك الذى خلق) نخف بها إلى خديجة رضى الله عنها فأخذته إلى ابن عمها ورقة بن نوفل فقص عليه ما جرى له ، وشاع أمر دعواه فى مكة، وأن ورقة قال له : إن هذا الذى كلمك هو الناموس الذى كان ينزل على الأنبياء قبلك ، وتمنى ورقة لو يطولُ عمرُه فيعززُه وينصرُه — لما كان كل ذلك — أخذ كفار قريش يقولون إنه صلى الله عليه وسلم مجنون، يريدون بذلك صرف القلوب عنه ، وتزهيد الناس فيه ، فلا يسمعون قوله ، ولا يتدبرون ما أتاهم من عند الله به ؛ فعند ذلك أنزل الله عليه هذه الآيات مثبتاً له ، ومذكرًا بفضل الله عليه .

مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾

وقوله ﴿بنعمة ربك﴾ مثل (بفضل الله) فيما إذا قلت لآخر أنت بفضل الله غير محتاج إلى أحد . والمعنى أن وصف الجنون منتف عنك يامحمد بسبب إنعـام الله عليك بالأخلاق الحسنة ، ولطفه بك مذ رباك تربية حميـدة . وكيف يصح فى العقـل أن يكون صلى الله عليه وسلم مجنوناً وهو ليوم خروجه من مكة مهاجراً إلى المدينة كانت لديه أمانات وودائع لأولئـك الذين كانوا يصفونه بالجنون ، وقد خلّف سيدنا عليا كرم الله وجهه فى مكة ليؤديها إلى أربابها . فهل يكون مجنونًا ذاك الذى لم يجدوا من يأتمنونه على ذخائرهم سواه ؟ نفى الله عن نبيه الجنون وأثبت له أمرين يستحيل أن يكون معهما مجنونًا : أحدهما اتصافه بالخلق العظيم والطبع الكريم ، والمجنون لايكون كذلك . وثانيهما الأجر والثواب الذى أعدّه الله له يوم القيامة ، وقال إن ذلك الثواب ﴿غير ممنون﴾ أى غير مقطوع ولامنقوص . كما قال تعالى فى محل آخر (عطاء غير مجذوذ) أى غير مقطوع . ومن كان له يوم القيـامة أجر على مساعيه وأعماله وتحمله المشقات فى سبيل الدعوة إلى الله كيف يكون مجنونا ؟ والثواب إنمـا يعتمد العقل ؛ لأن الثواب يكون على العمل ؛ والعمل المثاب عليه يعتمد الإرادة والاختيـار ، والمجنون لا إرادة له ولا اختيار ، وليس هو بمكلف ليثاب أو يعاقب .

وبالجملة فإن دعوى أهل مكة أنه صلى الله عليه وسلم مجنون دعوى باطلة لا أساس لها ، ولا حجة تعتمد عليها . وهنا أمر جدير بالذكر والتدبر : ذلك أنه صلى الله عليه وسلم كان أميا ، لا يقرأ ولا يكتب ، وأمره فى ذلك متعالم بين قومه مشهور فيهم . ثم لمـا أنزل عليه الوحى كان أول الآيات نزولا عليه آية (اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم) وآية (والقلم ومايسطرون) والآيتان وردَتا مَورِدَ الامتنان على الأمم بمـا وهبهم الله من نعمة الخط وصناعة القلم ، والشأن فى من لم تكن له تلك الموهبة أن يكون منتقصًا بين قومه مفضولا فيهم ؛ فهل يعقل أن يفترى محمد صلى الله عليه وسلم على الله بادّعاء النبوة ثم يفجأ قريشاً قبل كل شىء بمـا ينبههم إلى نقص يحسبونه فيـه ، وعيب يعدّونه عليه ؟ لا جرم أنه صلى الله عليه وسلم مدفوع إلى إعلان ما أتى به من الدين والوحى بسائق سماوى لايقوى على ردّه ، ولا طـاقة له بكتمانه . ثم لا يعزب عن فكر الفطن أنَّ جَهْلَ الخط والكتابة إن كان نقصا فى غيره صلى الله عليه وسلم فهو فيه محمدة ومزية وآية كبرى على صحة دعواه الرسـالة كما أشار تعـالى إلى ذلك بقوله : (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون) .

فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾

قد يلحق قلب النبي صلى الله عليه وسلم شيء من التأثر والوجد على أولئك المكذبين الذين يصفونه بالجنون ، كما يُخَيَّل إلى هؤلاء المكذبين أنهم بهذا البذاء والنيل من الرسول قد فازوا عليه ، وكُفُوا مؤونة الإذعان له ، والاهتمام بأمر دعوته. فقال تعالى مسليًا له صلى الله عليه وسلم ومذكرا ، ومهدّدا للمكذبين ومحذرا : سترى عما قريب يا محمد — كما يرى أولئك الذين وصفوك بالجنون — عاقبة أمرك وأمرهم ، وتعلمون جميعكم أى الفريقين منكم هو المصاب بالجنون واختبال العقل في الواقع ونفس الأمر . والعاقبة المنتظرة هى ما يكون للمؤمنين من الفوز والغلبة والفتح ، وما يلحق المشركين من الخذلان والاستسلام . وقد صدق الله وعده ، ونصر جنده ، وهزم الأحزاب وحده .

ومعنى قوله ﴿ بأيكم المفتون ؟ ﴾ من منكم هو المجنون ؟ ولكن الوصول إلى هذا المعنى يكون بأحد طريقين : إما بجعل الباء صلة زائدة كما هى فى قوله تعالى (وهزى إليك بجذع النخلة) وقول امرئ القيس "هَصَرْتُ بغصنٍ ذى شماريخ ميّال" وقول الأعشى "ضَمِنَتْ برزق عيالنا أرماحُنا" وتكون كلمة المفتون اسم مفعول من فُتِن إذا أصيب بفتنةٍ أى محنةٍ وبلاء : من ذهاب عقلٍ أو مال أو موت ولد أو حميم . فالمعنى هنا : سترون أيكم الذى فتن وابتلى بالجنون وذهاب العقل . وإما بجعل الباء أصلية ومعناها الإلصاق ، والمفتون مصدر بمعنى الفتون أى الجنون . وقد ورد المصدر بصيغة اسم المفعول فى ألفاظ قليلة ، كالمعقول والميسور والمجلود بمعنى العقل واليسر والجلادة . أى سترون بأى الفريقين — منا ومنكم — الجنون ؟

ولما كانت زيادة الباء وورود المصدر بصيغة اسم المفعول أمرين نادرين ، كان القولان المذكوران فى تفسير الآية موضعا للنظر . ومن ثَمَّ ذهب آخرون إلى جعل الباء أصلية بمعنى فى ، وإبقاء المفتون بمعنى اسم المفعول ، ويكون حل المعنى هكذا : سترون المفتون والممتحن بالجنون فى أى الفريقين ؟ فى فريق المؤمنين أو فى فريق المشركين . ويكون الكلام مبنيا على التعريض بالمشركين بأن المجنون فيهم ، لا يعدوهم إلى غيرهم . ووصفُهُ تعالى لهم بالجنون مشاكلة لوصفهم له صلى الله عليه وسلم بذلك ، وإلا فهم ليسوا مجانين حقيقة ، بل وُصفوا به من حيث إعراضهم عن الحق ، واتباعهم الهوى .

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾

وهذه الآية أيضا من قبيل التعريض بالمشركين الذين آذوا النبي صلى الله عليه وسلم ووصفوه بما هو موصوف بضد من كمال العقل وسلامة الشعور ، فلا يمكن لأحد أن يعلم من صفات البشر وأطوار نفوسهم ما يعلمه موجدهم الذى خلقهم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ، فهو تعالى يعلم الذين حادوا عن سبيل رضاه ، كما يعلم الذين سلكوا هذا السبيل وهُدُّوا من صالح أمرهم إلى الصراط المستقيم .

ولا ريب أن المكذبين هم الذين حادوا عن سبيل الهدى ، وواقعوا مهاوى الردى ، فما أشبههم أن يكونوا هم المجانين ، لا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذى هداه ربه إلى حميد الخصال ، وطبعه على مكارم الأخلاق .

مر آنفا أن هذه السورة من أوائل ما أنزل عليه صلى الله عليه وسلم من سور القرآن ، وكان صلى الله عليه وسلم إذ ذاك لا ناصر له سوى الله ، ولا مؤنس سوى الحق ، ولا مشايع سوى نفسه وكان المشركون فى معظم كثرتهم وأوج عزتهم ، وكانوا مع ذلك يتمنون لو يخضع لهم فى القول ، ويصانعهم فى ترك بعض ما يدعوهم إليه ، وعبادة بعض ما كانوا يعبدون من الطواغيت ، وهم فى مقابل ذلك يثبتون على مصانعته والإدهان له فى بعض ما يكلفهم إياه ، ويدعوهم إليه . وهكذا يبنون أمرهم معه على مواطأة وطباق ، ويديلون النفاق من الشقاق .

وقوله ﴿فيدهنون﴾ مرفوع على الاستئناف ، أى فهم يدهنون له منذ الآن وينتظرون منه أن يدهن لهم جزاء إدهانهم . ولو نصب فقيل (فيدهنوا) كان المعنى : ودوا أن يدهن لهم فيكافئوه على إدهانه بإدهان مثله . وليس هذا المعنى مرادا فى الآية .

وقد كان المتفائلون من المشركين يتوقعون فيه صلى الله عليه وسلم الميل إلى هذا الرأى من أمر المداهنة والمصانعة وحل المشكل بينه وبينهم على هذا الوجه ، غير أنه خاب ظنهم ، وكذب فألهم ؛ فإن الأمر ليس كما يظنون ، وللانقلابات الدينية الكبرى أسرار لا يعلمها إلا الله والراسخون . ولكن ما يدرينا أن تكون تسويلات المشركين وتمويهاتهم قد ألقت فى نفسه صلى الله

عليه وسلم بَرْدا من الأمل ، وحببت إليه موافقتهم فى بعض العمل ، فجاءت هذه الآيات تذكى نار همته ، وتشحذ من غِرار عزيمته ، فذكره الله فى فاتحة السورة بما كان يصفه به أولئك المتملقون من الجنون واختلال الشعور ، ثم ذكره ثانية بأن القوم يقولون عنه إنه كاذب ، فكيف مع هذا يصح منه أن يطيعهم فيما اقترحوه ، ويطمئن إلى وعدهم بأنهم يؤمنون ببعض ماجاءهم به . فهذا الاقتراح منهم ليس سوى مراوغة وخداع ، لا جرم أن يبقى موقف النبي صلى الله عليه وسلم إزاءهم — وهذه حالهم — موقف المتشدد فى دعوتهم ، الملح بطلب الإيمان منهم . وإلا فإن التساهل معهم يغريهم به ، ويزيدهم جرأة فى الاقتراح عليه ، وبهذه الصورة يتملصون من الدعوة شيئا فشيئا ، وينفضّ أشياعه من حوله حالا فحالا ؛ فلا يعود يستوثق للرسالة أمر ، ولا ترسخ للإسلام قدم .

ومن ثم نهاه الله عن إطاعتهم ، ونبهه إلى أنهم ينتظرون منه أن يخون أو يتسامح لهم فى تبليغ بعض ما أُمر بتبليغه فى مقابل خيانتهم هم أيضا وتسامحهم ، ثم يفسد الأمر عليه أخيرا ؛ فليكن على حذر من ذلك . وهذا التعليم القرآنى من أحسن ما يستفيد منه زعماء الأمم حُنْكَةً وتيقظا لما عساه يعترض سَيْرهم من عوائر التَّعِلَّات والأمانى . فالقرآن يرشدهم إلى وجوب التنحى عنها وعدم الانخداع بها .

أما قوله تعالى (تدهن فيدهنون) فهو من الإدهان بمعنى المداهنة المعروفة ، وهى ضرب من الخيانة : قال المبرد : " أدهن الرجل فى دينه وداهن فى أمره إذا خان فيه وأظهر خلاف ما يضمر " أما اشتقاقه فمن الدَّهْن . والدهن البل ، يقال : دهن المطر الأرض إذا بلها بلًّا يسيرا ، فلما كان الدهن وهو البل يلين الشىء بعد يبسه صح أن تشبه المصانعة ولين القول بالدهن والبل ؛ فإن الدَّهن يُلين اليابس ، والمصانعة تلين نفس من تريد خداعه ، وتكفكف من جماحه ونفوره . وربما كان الإدهان والمداهنة من الدَّهن والدهان بمعنى الصَّبْغ والصباغ ؛ فإن الملاينة وكلمات المصانعة جميلة أنيقة فى ظاهرها ، ولكن ليس تحتها حب صميم ، ولا إخلاص صحيح ؛ فهى مثل دهان تصبغ به الشىء وتلون ظاهره بما يجعله مونقا معجبا فى بادئ النظر ، ثم لا يكون كذلك فى الواقع ونفس الأمر .

وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾

نهى الله نبيه فى الآية السابقة عن إطاعة المكذبين فيما اقترحوه عليه من مصانعتهم وملاينتهم وأن يقبل منهم التصديق ببعض ما يدعوهم إليه دون البعض الآخر مما لا يوافقهم ، ولا يلائم أذواقهم . وقد ذكر تعـالى هؤلاء المكذبين ثمة بعنوان عام . أمّا فى هذه الآية فقد نهى الله نبيه عن إطاعة واحد منهم بعينه تجمعت فيـه خصال عشر غاية فى القبح والبشاعة ، معرِّضا بذلك الشخص تعريضا ، مدخلا له فى كل من كان مثله فى استجماع الخصال المذكورة . ولمـا كان من المستبعد أن تجتمع هذه الخصال جميعها فى أشخاص كثيرين فإن الذهن ينتبه بالضرورة إلى أن المقصود واحد بعينه اتفق اتصافه بتلك الخصال وإن كانت قضيَّته مسوّرة بالسور الكلى ، أعنى كلمة [كل] فى قوله ﴿ كل حلاف ﴾ .

وإن إيراد الكلام على هذا الأسلوب ، وإفراغ التعريض فى هذا القالب لهو من الحسن والوصول إلى الغرض بمكان .

وقد اختلف المفسرون فى الشخص الذى أريد التعريض به ، والأكثرون على أنه الوليد بن المغيرة المخزومى[1] .

كان هذا الرجل من رجالات قريش وساداتهم ، وكان فى سعة من المـال وكثرة من الولد ، وكان يقول لأولاده وأبناء عشيرته ، كلما آنس منهم ميـلا إلى النبى : " لئن تبع دين محمد منكم أحد لا أنفعه بشىء أبدا " فكانوا بسبب ذلك يمتنعون عن الإيمان به صلى الله عليه وسلم .

كان أشراف قريش وفيهم الوليد بن المغيرة يطلبون من النبى أن يتنازل لهم عن بعض ما يكلفهم من أمور الدين ، فحذر الله نبيه الوقوع فى أشراكهم عامة ، وأشراك الوليد خاصة ؛ لأن ما فى الوليد من الأخلاق والأطوار مظنة أن يؤثر فى نفسه صلى الله عليـه وسلم انخداعا

(١) وسيأتى فى سورة المدثر آيات فى صفات الوليد هذا ، أولها . " ذرنى ومن خلقت وحيدا " فالمراد بالمخلوق فيها الوليد بن المغيرة نفسه . المؤلف

أو مصانعة،ولذلك أسهب الوحى فى التعريف بالوليد، ووَصْف أحواله،وتصوير مستبشَع خصاله بحيث أبرزه للعيان لؤما مجسما ، وشيطانا باللعنات مُسَوَّ ما.وتلك الخصال أو اللَعنات العشر :

(١) كثرة الحلف بالله تعالى . وسيأتى من جملة خصاله الغيبة والنميمة ؛ فيبعد ألا يكون متصفا بالكذب ، والكذب أخوهما الشقيق . فَوَصْفُ الله الوليد بأنه (حلاف) قد يكون المراد منه أنه كذاب، وأنه من الكذب فى أقبح حالاته ؛ فهو يكذب ويدعم كذبه بالحلف بالله ويروج باطله بذكر اسمه تعالى، وهو استخفاف منه بمقام الألوهية، وجهل بعظمة الله تعالى وما يجب لاسمه الكريم من التوقير والتعظيم ، ولا يُكثر الحلفَ عادة إلا مَنْ عرف أن الناس لا يصدّقونه فيما يقول ؛ فهو يحلف لهم ليصدّقوه . فكثرة الحلف مظنة الكذب . قال الشاعر :

وأكذب ما يكون أبو المثَنَّى إذا آلى يمينا بالطلاق

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يضربون أولادهم إذا سمعوهم يحلفون تعويدا لهم وتقويما لأخلاقهم .

(٢) ومن صفات الوليد أنه ﴿مهين﴾ والمهانة الحقارة، وليست حقارته فى نفسه وانحطاط شأنه فى قومه ، وإنما هى حقارة الرأى ، وضعف التمييز ، وقلة التدبر فى عواقب الأمور . ولو كان جيد الرأى ، وافر التدبر — ما آل أمره إلى الجحود والكفر ، أو ما كان كاذبا ، ثم يقيم دليلا على كذبه كثرةَ حلفه ، واستخفافه باسم ربه .

وإنما قلنا إن المراد من المهانة مهانة الرأى لا مهانة الشأن والمكانة ؛ لأن من جملة خصال الوليد الآتى ذكرها أنه يكثر الوقيعة فى الناس ويظلمهم ، ويعاملهم بالقسوة والعنف، وأنه كثير المال والولد ، ومن كان هذا شأنه كان مهيبا مرعى الجانب موفور الحرمة فى قومه ، لا محقرا وضيع القدر فيهم ، وقد يقال إن الظالم العاتى كثير المال والولد يكون رفيع المنزلة عظيم الخطر فى نفوس الجهال والعامة ، أما عند أرباب الفضل والعقل والدين ، فمنزلته منحطة ، وقدره مهين ، فلا جرم أن يكون الوليد مهينا بهذا المعنى أيضا .

هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾

(٣) ومن خصاله العشر أنه ﴿همازٍ﴾،والهمز فى اللغة النخس، ومنه المهماز للدابة . وهو أيضا الضرب والعضّ والضغط . قالوا لأعرابى "أتَهمز الفأرةَ" يريدون أتنطق بها مهموزة ؟ فحسبهم يقولون : أتعضها وتضغط عليها؟ فأجابهم : "الهر يهمزها". ثم استعمل الهمز فى الطعن فى الناس والغض منهم ، وذكرهم بالمكروه ، وهو اللمز أيضا : يقال هو "هُمَزة لُمَزة" : كما يقال هماز . وطُرق همز الناس وتحقير أمرهم كثيرة متشعبة ؛ يهمزهم الهماز لحين العداوة وثورة الحقد ، أو وقت الهزل والسخرية ؛ يهمزهم فى دينهم وأخلاقهم ، أو فى هيئاتهم ومختلف أطوارهم يهمزهم فى حضورهم ، أو وقت غيابهم ، يهمزهم بلسانه ، أو يشير إليهم برأسه أو عينه وبنانه ، كل هذا يدخل تحت الهمز ، ويقال لفاعله إنه هماز . وقد روى أن الوليد المذكور من أكبر الهمازين ، فقد كان يهمز النبى صلى الله عليه وسلم ويذكره بالسوء فى غيبته ، ويطعن عليه فى حضوره ، وكان يلقّب الناس بألقاب السوء كما يفعل السفهاء والتحوت .

(٤) ومن خصال الوليد أيضا أنه ﴿ مشاء بنميم ﴾ ، أى يمشى بين الناس بالنميمة ؛ فينقل حديث بعضهم إلى بعض بقصد إفساد ذات بينهم ، وإثارة الأحقاد والعداوات فى صدورهم .

(٥) ومن خصاله الملعونة أنه ﴿مناع للخير﴾،أى يحول بين الناس وبين فعل ما يريدونه من عمل الخير، والمراد من الخير كل عمل صالح : إيمان بالله ، أو إسداء صنيعة ، أو إنفاق فى وجه من وجوه البر . وقد يكون المراد بالخير الذى يمنعه الوليد إيمان بنيه وبنى عمه وعشيرته فقد ذكرنا آنفا أنه كان يقول لهم : "لئن تبع دين محمدٍ منكم أحد لا أنفعه بشىءٍ أبدا" .

(٦) ومن خصاله أنه ﴿معتدٍ﴾ ، أى يتعدّى حدود العدل والإنصاف فى معاملة الناس ؛ فيظلمهم ويجور عليهم ، ويهضم حقوقهم .

(٧) ومن أوصافه أنه ﴿ أثيم ﴾ ، أى كثير الإثم ، والإثم الذنب وأن يعمل المرء ما لا يحل عمله .

عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾

(٨) ومن ذميم أوصافه أيضا أنه ﴿ عتل ﴾ ، والعتل بضم العين والتاء وتشديد اللام الأكول الشروب القوى الشديد يوضع فى الميزان فلا يزن شعيرة ، وقيل هو الأكول المنوع ، وقيل هو الجافى الغليظ ، أو يقال هو الضخم فى جسمه ، الشره فى أكله ، الفظ فى طبعه، اللئيم فى نفسه ، السيء فى معاملته ، و بالجملة هو الذى لا يطاق ولا يحتمل ، وعن أبى الدرداء رضى الله عنه : " العتل كل رغيبِ الجوف، وثيقِ الخلْق ، أكولٍ شروب، جموع للمال ، منوع له" اه ورغيب الجوف واسعه .

وربما كانت كلمة [العتل] أجمع كلمات اللغة العربية لمساوى الأخلاق حتى إنّ اللؤم نفسه أصبح معنى من معانيها ، ولطخة من مخازيها .

(٩) ومن خصال الوليد ﴿بعد ذلك﴾ أى وراء كل ما تقدّم من خصاله القبيحة أنه ﴿زنيم﴾ و[الزنيم] هو الذى يندس فى القوم ويستلحق بهم فى النسب ولا يكون منهم ، فهو معلق بهم كالزنمة فى عنق العنز ، والزنمة هنة تنتأ فى جلد العنز وتتدلى من عنقها كالقرط ، وهو خِلق فيها ، أما هو فى الضائنة والناقة فليس خِلقيا ، و إنما هو فيهما أن تقطع من أذنيهما جليدة فتترك معلقة لتكون علامة تميز بها النعجة الكريمة أو الناقة الكريمة عن سائر النعاج والنياق .

وقد ذكروا أنّ الوليد لم يكن ذا نسب صحيح فى قريش، و إنما استلحقه أبوه بعد مضى ثمانى عشرة سنة من عمره، فهو إذن زنيم دعِى ملصق . ومن معانى [الزنيم] الرجل الذى اشتهر وعرف بين الناس بلؤمه وخبثه وكثرة شروره ، فهو ممتاز فيهم بصفاته هذه كما تمتاز الشاة عن بقية أخواتها بزنمتها المتدلية فى أذنها ، فمعنى كون الوليد زنيما على هذا أنه مشهور فى قومه باللؤم والشر وربما كان تفسير كلمة زنيم فى القرآن بهذا المعنى أشبه به ، وأنزه له .

(١٠) بقى من خصال الوليد الخصلة العاشرة ، وهى استخفافه بآيات الله ، وتسميته لها ﴿أساطير الأولين﴾، أى أكاذيب يتداولها الناس بينهم من أخبار الأقدمين ، ليست صحيحة ولا تحدث فى النفس أثرا ، و إنما تقال تفكهة وتسلية ، وقد كان الوليد بن المغيرة كلما تليت عليه آيات القرآن رجاء النظر فيها والإيمان بها — سخر منها وقال : إنها (أساطير الأولين) .

سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾

وقوله تعالى : (أن كان ذا مالٍ وبنين) علة لما قاله الوليد ، أى إنما قال الوليد هذا القول المنكر فى القرآن لفرط غروره بأمواله وأولاده ؛ فإن المتقوِّى بماله ورهطه يَطغَى ويَبغِى ، ويتجاوز الحدود فى الكفر والجحود ، وهكذا كان شأن الوليد .

ويحتمل أن يكون المعنى على العتاب المشوب بشىءٍ من التوبيخ والتقريع ، كأنه تعالى يقول : أمِن أجل أن كان الوليد مُنعَمًا عليه من قِبَلِنَا بالمال والبنين أخذ يفترى على آياتنا كلما تليت عليه ويقول عنها إنها أساطير الأولين ؟ أهذا جزاء الإحسان ؟

وأظلم خلق الله من بات حاسدا لمن بات فى نعمائه يتقلب

وقد جعل بعض المفسرين قوله تعالى : (أن كان ذا مالٍ وبنين) متعلقا بما قبله ، وهو قوله تعالى : (ولا تطع كل حلاف) الخ وليس متعلقا بما بعده وهو قوله تعالى : (إذا تتلى عليه آياتنا قال). وحل الآية على تعلقه بما قبله : لا تطع يامحمد من كان متصفا بهذه الأخلاق الرذلة ، مراعاة لكثرة ماله ، وتعدد ولده ، فإن اتصافه بما ذكر من الأخلاق يستدعى النفرة منه ، والزراية عليه ، مهما أوتى من المال والولد ، لا المراعاة له ، والمجاملة إلى حد الإطاعة .

وبعد أن عدّد الوحى مثالب هذا الجاحد المعاند أراد أن يسجل عليه الخزى الأبدى فقال ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾ .

[الوسم] أن تضع علامة على الشىء تميزه بها عن غيره ، و (الخرطوم) الهنة المستطيلة فى موضع الأنف من الفيل ، وتقوم له مقام اليد يتناول بها حاجاته . ويطلق الخرطوم أيضا على مقدم أنف الخنزير ، وربما كان استعمال الخرطوم فى الآية بمعنى الأنف منقولا عن المعنى الثانى أعنى خرطوم الخنزير ، تحقيرا لذاك الجاحد وتهكما به ، كما تهكم هو بآيات الله مذ وسمها بأساطير الأولين . [والوسم] على الخرطوم كناية عن الإذلال والخذل . قال المتلمس وهو من أقدم شعراء الجاهلية :

ولو غيرُ أخوالى أرادوا نقيصتى جعلت لهم فوق العرانين ميسما

أى أذللتهم وقهرتهم . وإنما خصوا الأنف بالذكر دون سائر الأعضاء لكونه موضع ظهور أثر العزة والحمية والشمم ؛ فإذا أرادوا أن يصفوا إنسانا بذلك قالوا : "فلان شامخ العِرنين" ،

إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ

"وَحَمِيَ أنف فلان أى غضب وتعزز . واشتقوا من الأنف [الأنفة] بمعنى العزة والاستنكاف. وإذا أرادوا أن يصفوا أحدا بالذلة والمهانة عكسوا وقالوا " فعلتُ ذلك على الرغم من أنفه" أى قهرا عنه . و "أَرغم فلان أنفَ فلان" أذله وقهره . وأصل معناه أن يلصقه بالرغام وهو التراب . و"جُدِع أنفُ فلان" دعاء عليه أو إخبار عنه بالذلة والمهانة . والجدع القطع . ويقولون "فلان وَسَم فلانا ميسم سوء" إذا سبه مسبة قبيحة باقية بحيث تلصق به ، وتصبح كالسمة له .

ومعنى الآية أن الوليد بن المغيرة بما كان منه من التكذيب وإيذاء النبي صلى الله عليه وسلم والتمادى فى قبيح الخصال استحق أن نسمه على خرطومه أى نلحق به ذلا وعارا يلزمه لزوم السمة فى خرطوم الخنزير، ويجعله مذكورا بهذا الوصف القبيح على أَلسِنةِ الأنام، مدى السنين والأعوام .

وقد تحقق قول الله ، ونفذت مشيئته فى الوليد ، فإن اسمه سيبقى مقرونا بالخزى والعار على كر الأيام والسنين ، وما تليت تلك الآيات التى سماها أساطير الأولين .

ومغزى الآية تسلية النبي صلى الله عليه وسلم ، وحمله على اليأس من إيمان هؤلاء المكذبين لا سيما الوليد، وتنبيهه صلى الله عليه وسلم إلى أن من كان كالوليد فى قبيح خصاله، وسيئ فعاله — يصبح من المعذر انتظار الإيمان منه ، ورجاء الخير فيه . فلا تشغل قلبك أيها الرسول الكريم بمثله ، واتكل على معونة الله وفضله .

الضمير فى (بلوناهم) يرجع إلى أهل مكة الذين سماهم الله المكذبين فى قوله (فلا تطع المكذبين) وذكر من أوصاف أحدهم وهو الوليد ما ذكر ، ومن أوصافه الممقوتة أنه كان يسمى آيات الله (أساطير الأولين) كبرا وعتوا واعتدادا بكثرة ماله وولده . والمال والولد نِعَمٌ أنعم الله بها عليه وكان من حقها أن تورث نفسه إخباتا وخضوعا ، وتقوده إلى الإسلام بزمام الشكر ومعرفة الجميل، لكنها على العكس كانت سبب كفره وجحوده ، وتماديه فى غيه وضلاله .

كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ

الوليد بن المغيرة وأمثاله من سادات مكة الذين أنعم الله عليهم بالنعم المختلفة فقابلوها بالجحود والكفران ، و بادروا نبيه بالتكذيب والاستخفاف والعصيان ، حتى كان هذا منهم سببا لسلخ النعم عنهم ، و إنزال النقم بهم — يشبه حالهم حال أصحاب الجنة ، و يصح أن يضرب غرور أصحاب الجنة مثلا لهم . والمراد من الجنة هنا معناها اللغوى ، وهو الأصل فيها ، أعنى البستان كثير الزروع والأثمـار والأغصان الملتفة . والناس فى زماننا إذا أرادوا هذا المعنى سموه بستانا أو جنينة . و يخصون الجنة بفراديس النعيم الأخروى ، وهى أكثر ما تطلق على ذلك فى نصوص الدين .

وتعريف الجنة و إضافة الأصحاب إليها يشعر بأنها وأصحابها معهودة للمخاطبين ، وأن حكايتها وحكايتهم مستفيضة فيهم .

ولمـا أراد الله أن يُذَكِّر أهل مكة بمـا كان من إسباغه النعم عليهم ، وما كان منهم من التكذيب فى مقابل هذه النعم ثم زوالهـا عنهم — ضرب لهم مثلا قصة أصحاب البستان المتداولة بينهم فى ذلك العصر ، ليكون ذكرها أتم فى التصوير ، وأبلغ فى التذكير والتأثير . وسواء أكانت قصة أصحـاب الجنة ممـا حدث فى زمن العرب أم فى زمن غيرهم من أهل الكتاب — فذلك ما لاتهم معرفته ما دام القصد من سرد القصة مغزاها ، و إحداث الوعظ والتذكير بها . على أن بعض المفسرين روى أن أصحاب الجنة هؤلاء كانوا أناسا من الحبشة من أهل الكتاب ، وكان أبوهم شيخا صالحا وله جنة فيها نخل وزروع فكان يمسك قوت سنته ، و يطعم منها المساكين و يتصدق بالفضل ، فكان بنوه ينهونه عن ذلك فلا يلتفت إليهم . فلمـا مات قالوا والله إن كان أبونا لأحمق حين يطعم المساكين و إن لنا عيالا كثيرين ، والمـال قليل ، فلو فعلنا ما كان يفعل أبونا ضاق علينا العيش ، ثم كان منهم ما قصه الوحى علينا فى هذه الآيات مذ قال ﴿ إنا بلوناهم كما بلونا أصحـاب الجنة ﴾ .

والبلاء والابتلاء الاختبار والامتحان ، فإذا نسب إلى غير الله تعـالى كان المراد أن يعرف المبتلِى ما جهل من أمر المبتلَى ، و إذا نسب إلى الله كان المراد كشف الأمر و إظهاره للذين يجهلونه و يمـارون فيه .

إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾

وابتلاء الله البشر قد يكون بإغداق النعم عليهم ؛ فيكفرون أو يشكرون . وقد يكون بإنزال المصائب بهم ؛ فيجزعون أو يصبرون . ويسمى هـذا الابتلاء أيضا امتحانا وفتنة ، ويسمى فى الأسفار المقدسة تجربة وتجارب . وقد ورد فى أدعية تلك الأسفار خطابا لله تعالى "لا تدخلنا فى تجربة" . ومن استعمال الفتنة فى القرآن قوله تعالى : (الٓمٓ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) وابتلاء الله لكفار قريش كابتلائه لأصحاب البستان ؛ فإنه تعالى أغدق على الفريقين صنوف نعمه فكفروا بها ، ولم يرعوها حق رعايتها .

قلنا إن أصحاب الجنة قوم كانت لهم أرض ذات نخل وزرع وريع ، فلما حان صرامها [بفتح الصاد وكسرها وقت جنى ثمرها] تواطئوا فيما بينهم وأقسموا ألا يصرموا الجنة ولا يجنوا ثمارها ، إلا فى صباح اليوم التالى . والكلام فى أسلوبه هذا يشعر بأن قوما آخرين ينازعون أصحاب البستان ، ويريدون أن يشاركوهم فى قطف ثمراته ، وتناول شىء من خيراته ، وبذلك اضطروا أصحابه إلى أن يتواصوا هذا التواصى ، ويعقدوا العزم بينهم على الذهاب إلى بستانهم فى وقت لا يتيسر لأولئك المنازعين أن يصحبوهم فيه ، وهذا الوقت هو وقت الصباح ، وقت استغراق الناس فى نومهم . ويستدل من قول أصحاب الجنة الآتى (لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين) على أن هؤلاء المنازعين الذين يُخْفَى الصرامُ عنهم هم المساكين .

ويفهم من تقاسم أصحاب البستان ، وتعيينهم وقت الصبح لمباشرة عملهم أن للمساكين شأنا خاصا فى ذلك البستان ، وإلا لم يحتج الأمر إلى أن يتعاهد أصحابه على جَزِّ أثماره المملوكة لهم خفية ؛ إذ كيف يسوغ لأحد أن يعارض آخر فى ملكه ، ويحول بينه وبين الانتفاع بثمره — لو لم يكن لذلك المعارض حق أو شبه حق فى هذا الثمر ؟

أما الحق أو شبه الحق الذى كان للمساكين فهو أن صاحب الجنة ومالكها قبل أصحابها هؤلاء كان قد جعل فى ثمارها نصيباً مفروضاً لأولئك المساكين الذين يعيشون معه فى القرية ، فكان بذلك يكسب ثناءهم ، ويستل سخائمهم ، ويكف يدهم عن العدوان بالسرقة على بستانه وبساتين أهل القرية ، ويكون من جهة ثانية قد قام بالشكر الواجب لله تعالى على ما أنعم من الرزق الطيب والعيش الهنىء . ولا جرم أن يكون هذا الصنيع منه مدعاة المزيد ، ووسيلة إلى

دوام النعم واستمرارها ، وعدم وجود منغص لها . أما خلفاء هذا المحسن البار على تلك الجنة فإنهم لم يطيقوا أن يجعلوا للمساكين حظاً فى جنتهم ، ولم يفعلوا ما كان يفعل سلفهم من إعلان وقت الصرام ، ليقبل المساكين ، ويتناولوا حصتهم ، بل رأوا ذلك مضيقا لرزقهم ، مقللا من أنصبائهم ، وغفلوا عن أن زكاة المـال تطهره وتزيده نمـاء ، وتطيل مدة التمتع به . فهم من أجل ذلك عقدوا النية على حرمان المساكين ، ومنعهم ما كانوا يتبلغون به من ذلك البستان ، ورأوا أن يتوصلوا إلى ذلك بمباشرة صرم ثمرات النخيل وقت السحر ، إذ يكون أولئك النفر من المساكين مستغرقين فى نومهم ، مستسلمين إلى غفلتهم .

هذا معنى ﴿ إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ﴾ . ومعنى قوله تعالى : ﴿ ولا يستثنون ﴾ ـ أنهم كانوا يحلفون على مباشرة الصرم وحرمان المساكين واثقين من مواتاة الأقدار لهم ، غافلين عن قدرة الله تعـالى ، فكانوا لايستثنون فى اليمين ، ولا يقولون إلا أن يشآء الله ، وهذا منهم دليل الغفلة والغرور ، وترك التفكير فى عجائب المقدور ، والاستثناء فى اليمين أن تقول : "لأفعلن كذا إلا أن يشاء الله" وهو آية من آيات الإيمان بالله تعالى ، ودليل الثقة بقدرته وتفويض المشيئة إليه [١] .

لمـا وطن أصحاب البستان نفوسهم على منع المساكين حقوقهم فى ذلك البستـان وأكدوا الأيمـان فيما بينهم على ذلك غير مستثنين ، ولا حاسبين حساباً للاقدار وتصاريفها وحكمة الله وتعاجيبها ـــ ذهبوا إلى مضاجعهم وهم ينوون التبكير إلى الجنة وإذا ﴿ طائف من ربك ﴾ أى بلاء عظيم حصل بمحض قدرة الله من دون دخل للبشر فيه ، طاف عليها ليلا ، وتتبع أشجارها ، فأتلفها وأحرق عذوقها ، وأفسد أثمـارها ، بحيث يحسبها الناظر إليهـا ﴿ كالصريم ﴾ أى كالبستان الذى صرم أصحابه ثمره ، وقطعوا عذوقه ، ولم يُبقوا على شئ منه . وهذا الطائف الذى ألم بالجنة ليلا فأتى عليها هو من قبيل الآفات السماوية التى تفجأ الأغراس والمزروعات فى بعض السنين فتتلفها ، وتلحق الخسار بأصحابها . ولا يلزمنا أن نعين جنس ذلك الطائف ، وانمـا نقول إن استئصاله لثمـار الجنينة وإفساده فيهـا كان بالغـا حده بحيث يحكم المتأمل فيــه أنه حصل بصورة خارقة للعـادة من شأنها أن تحدث فى النفوس النافلة الرهبة والازدجار .

ومعنى (طاف عليهـا طائف) طرقها فى الليـل من أمر الله طارق . ولا يكون الطائف فى كلام العرب غالبا الا ليلا كالطارق . ومنه الطائف للعسس . ومعنى (الصريم) المصروم ثمره أى المقطوع المجذوذ . وللصريم معان أخر : منها الليل المظلم البهيم ، والأرض السوداء لاتنبت

(١) يصح أن يكون المعنى : "ولا يستثنون حصة المساكين كما كان يفعل أبوهم" ولعله المتبادر . المصحح

فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾
فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا
عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾

شيئا ، والقطعة من معظم الرمل ، وكلها تصلح فى تفسير الآية . ومن شبهها بالليل جعلها بعد أن احترق نباتها ، وتصوحت أوراقها ، وزالت خضرتها — سوداء كالليل البهيم .

لما أفاق أصحاب البستان من نومهم جعل بعضهم ينادى بعضا قائلين : هلموا الآن ، أى فى وقت الصبح الذى لا يبكر فى مثله المساكين عادة ، فاذهبوا إلى بستانكم إن كنتم تريدون صرم ثماره من دون أن يشهد صرمكم أحد من أولئك المساكين .

و [الحرث] الزرع ، والمراد به موضع الزرع وهو البستان حيث الأثمار والأعناب ؛ فهو كقوله تعالى : (نِساؤكم حرث لكم) أى موضع حرث .

[والغدو] يتعدى بإلى من حروف الجر : يقال "غدا إلى موضع شغله" أى ذهب إليه وقت الغداة . لكنه عداه هنا بعلى مضمنا له معنى أقبل : كأنه يقول : "أقبلوا على حرثكم" .

وقد وصف فى قوله تعالى : ﴿ فانطلقوا وهم يتخافتون ... ﴾ حالة خروجهم إلى الجنة ، كما وصف فى سابقتها حالة نهوضهم من النوم ، أى اتخذوا طريقهم إلى الجنة وهم يتكلمون بكلام خافت مهموس لئلا يسمعهم المساكين فيتبعوهم ، يقول بعضهم لبعض : لن ندع أحدا من أولئك المساكين يدخل جنتنا ، ويشاركنا فى رزقنا ونعمتنا .

وقوله ﴿ وغدوا على حرد قادرين ﴾ أى وظلوا بعد أن قالوا ما قالوا جادين فى سيرهم ، حاسبين فى نفوسهم أنهم قادرون على حرد أى منع أولئك المساكين نصيبهم من ثمرات الجنة ؛ فقوله [على حرد] متعلق بقادرين مقدم عليه . و [قادرين] حال من فاعل [غدوا] لا خبر لغدوا : لأن [غدا] هنا فعل تام بمعنى ذهب وقت الغداة ، لا فعل ناقص بمعنى صار أو أصبح ..

و [الحرد] له معانٍ كثيرة ، أنسبها هنا ما ذكرناه ، وهو المنع : يقال "حَرَدَ زيدا" إذا منعه . و "حارد فلانٌ" إذا كان يعطى ثم منع . و "حارَدَت الناقةُ" مَنَعَت لبنَها . و "حارَدت السنةُ" مَنَعَت مطرَها .

فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٣٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٣٧﴾

ورجح بعضهم أن يكون [الحرْد]هنا بمعنى القصد . يقال : "حَرَدْتُ حَرْدَكَ"، أى قصدت قصدك . ومنه قول الشاعر :

أقبل سيلٌ جاء من أمر الله يَحْرُدُ حردَ الجنة المغِـلَّة

أى يقصد قصد الجنـة ذات الغلة وجهتها . ويكون الحرد فى الآية بمعنى القصد المعزوم عليـه فى النفس ، فيصير المعنى : إن هؤلاء القوم جاءوا جنتهم غدوة النهار على أمر قصدوه واعتمدوه وبيتوه فيما بينهم شاعرين من أنفسهم القدرة على إنفاذه .

والحاصل أن القوم بيتوا النية ليلا على منع المساكين ، وهبوا من نومهم صباحا وهم يتحاضون على الثبات فى هذه النية، ثم ساروا إلى الجنة وهم يتهامسون بلزوم إنفاذ ماصمموا عليه ، شاعرين من أنفسهم بالقدرة على هذا الانفاذ ، وما علموا أن الله الذى لم يشكروا نعمه ، ولم يرحموا عياله — من ورائهم محيط ، وعلى إحباط كيدهم قادر .

إن القوم بقوا مصممين النية على الحرد حتى وصلوا إلى الجنة التى طاف عليها طائف الآفة السماوية فأحرقها ، وصوح نبتهـا ﴿ فلما رأوها ﴾ على هذه الحالة عرفوا أنهم كانوا على ضلال من جهتين : من جهة منعهم المساكين حقوقهم ، ومن جهة غفلتهم عن قدرة الله ، وسرعة انتقامه ممن نابذ أوامره الإلهية ، وخالف سننه الكونية .

وبعد أن سجلوا على أنفسهم الضلال ،وحكموا عليها بالغفلة — ذهبوا فى الحكم عليها إلى أبعد من هذا ، فعلموا أن المساكين الذين أرادوا حرمانهم من الرزق ليسوا فى الحقيقة محرومين ما داموا فى رحمة الله ، وتحت كلاءته ، وإنما هم المحرومون على ما يظهر ؛ لأنهم استحقوا مقت الله وغضبه بخروجهم عن سننه ، وقسوة قلوبهم على عباده ، ولذلك أتلف جنتهم ، وأفسد عليهم معيشتهم . ويحتمل أن يكون المراد من حكمهم على أنفسهم بالضلالَ ضلال الطريق إلى جنتهم مذ رأوها محترقة لا نبت فيها ولا ثمر ، ولا أثر من آثار الحياة ، مع أنهم تركوها بالأمس مثمرة مورقة وارفة الظل ، فحسبوا أنها غيرها ، وأنهم أخطأوا طريق الوصول إليها ، ثم بعد هنيهة تبين لهم أنها هى هى ، فأضربوا عن ظنهم الأول قائلين : ﴿ بل نحن محرومون ﴾ ، أى لم نضل طريق جنتنا ، وإنما حرمنا الله إياها بشؤم طالعنا ، وتغير نيتنا .

قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾

لما ظهر لأصحاب الجنة خطؤهم ، وأنهم فى ضلال من سعيهم — انبرى واحد منهم كان وعظهم من أول الأمر ، ونصح لهم أن يرعووا ويكفوا ويراقبوا الله فلا يجحدوا فضله ، ولا يكفروا نعمته ، ولا يمنعوا المساكين حقهم ، فلم يبالوه ولم يكترثوا له ، فأخذ الآن يذكرهم بما كان من نصيحته لهم ، ويؤنبهم على ما كان منهم من المخالفة والعناد والكفران ، وكان هذا الناصح أوسط رفاقه ، أى خيرهم وأعدلهم رأيا ، وأمثلهم طريقة ، وأسرعهم رجعة إلى الله . والوسط من كل شىء خيره وأعدله . ومنه قوله تعالى : (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) .

﴿ قال ﴾ لهم ﴿ أوسطهم : ألم أقل لكم الخ ﴾ أى أتذكرون أنى كنت حذرتكم عاقبة الجحود ، وحضضتكم على تسبيح الله ، أى تنزيهه من كل سوء . وتنزيهكم له يكون بالاستثناء وردّ المشيئة إليه تعالى ، وأنتم لم تستثنوا مذ عزمتم على صرم جنتكم ، وإنما صممتم عليه غافلين أو متغافلين عن عجيب قدرة الله تعالى . ويكون التنزيه أيضا بالايمان بالله والخوف من بطشه ، واعتقاد أنه تعالى يغار على خلقه الذين هم عياله ، فلا يرضى أن يبخسوا حقوقهم ، فأنتم لما لم تؤمنوا به ، ولم تخافوا بطشه ، ولم تحسنوا معاملة خلقه — كنتم معتقدين فيه تعالى العجز والضعف والخرق ، فلم تكونوا مسبحين ولا منزهين له عن صفات النقصان . وكان خطيبهم وهو يأمرهم بهذا يلح عليهم فى طلب التسبيح ، لأنه استعمل كلمة [لولا] وهى مثل [هلا] فى إفادة الحض والحث .

ويظهر أن هذا الخطيب لما نصح لهم فلم يقبلوا نصحه فَضَّل أن يبق فى جملتهم ، ومشاركا لهم فى عملهم ، على حد قول دريد بن الصِّمَّة :

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

وكذلك لما ظهر للقوم خطؤهم فى مخالفة خطيبهم عاتبهم بقوله ﴿ ألم أقل لكم لولا تسبحون ﴾ فكان هذا القول منه على حدّ ما قاله دريد أيضا فى عتاب قومه فى القصيدة نفسها :

مَحَضْتكمو نُصحى بمنعرَجِ اللوى فلم تستبينوا الأمرَ إلا ضحى الغد

قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾
قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ
رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾

وقد يكون للعقلاء الناصحين مأرب فى بقائهم مشاركين لقومهم فى عمل ما نهوهم عنه ، مثل اجتناب التفرق والانشقـاق الذى يعقبه الفشل وطمع العدو ، ومثـل أن يأخذ أولئك العقلاء الناصحون بحُجُزَاتِ قومهم وقت التهور واشتداد الأزمات ، ومثل أن ينبهوهم إلى سوء صنيعهم ونتيجة مخالفتهم وقت الوقوع فى الهلكات ، فيكون تذكيرهم لهم إذ ذاك أشدّ تأثيرا فى نفوسهم وأعونَ على تقويم اعوجاجهم ، ولم شعثهم . اعتبر هذا فيما كان من أصحاب البستان إذ ﴿ قالوا ﴾ فى جواب أوسطهم الذى كان نصح لهم : ﴿ سبحان ربنا إنا كنا ظالمين ﴾ فانظر كيف اعترفوا من فورهم بظلمهم للمساكين ، وتركهم ردّ المشيئة إلى الله ، وجأروا بتسبيحه تعـالى وتنزيهه ، ولكن بعد حلول الدَّبْرَةِ ، وخراب البصرة .

ثم بعد أن أقرّ القوم بذنوبهم ، ورجعوا إلى الصواب فى تنزيه خالقهم — أقبل كل واحد منهم على صاحبه يلومه ، ويزعم أنه هو الذى أغراه بالعصيان ، وحثه على التمـادى فى مخـالفة الناصح أو عدم الاعتـداد بحقوق المساكين ، وترك إطعامهم من جنتهم . فيقول أحدهم : أنت أشرت علينا بهذا الرأى المعكوس ، ويجيبه الآخر : بل أنت خوّفتنا الفقر وعاقبة الإنفاق على المعوزين ، ويقول الثالث : أنتم الذين لم تسمعوا قولى ولم تصغوا إلى نصحى . وهذا معنى ﴿ يتلاومون ﴾ ثم إنهم لم يكتفوا باستقباح عملهم ، والوقوف به عنـد حدّ الاقرار بالخطأ والتلاوم ، بل جعلوا يدعون على أنفسهم بالويل والهلاك ، وصرحوا بأنهم جديرون بذلك ؛ لِمـا أنهم كانوا ﴿طاغين﴾ ، أى متجاوزى الحدّ فى المخالفة والعصيان ، وهذا هو معنى الطغيان .

وهذا السخط على أنفسهم ، وإعلانهم فظاعة عملهم ، وتصريحهم بأنهم ظلموا وتجاوزوا كل حد — إنمـا أرادوا به التوصّل إلى استنزال عفو الله والتعرّض لنفحاته ، وأن يعوّضهم خيرا مما فقدوه ، ولذلك نسمعهم يقولون فى ختام حديثهم ﴿ عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها ﴾ أى نرجو الله أن يعوّضنا جنة تكون خيرا من تلك الجنة التى بارت وتصوّحت . ثم قالوا إنهم لا ملجأ لهم ولا مستغاث إلا الله ، وهذا معنى قولهم ﴿ إنا إلى ربنا راغبون ﴾ ؛ لأن فعل [رغب] إذا تعدّى [بفى] كان معناه إرادة الشىء ، والطمع فى الحصول عليه ، وإذا عدى [بعن] كان معناه على

كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

العكس أى الكراهة للشيء والنفرة منه ، وإذا عدى [بإلى] كان معناه الضراعة والابتهال . وهنا قدّم الجار والمجرور على الفعل فأفاد الحصر . ويكون المعنى إننا مبتهلون ضارعون فى قضاء حاجتنا ، وفى أن يبدلنا خيرا من جنتنا — إلى ربنا لا إلى غيره . ويكون هذا منهم منتهى التسبيح والإيمان ، بعد ذلك الجحود والكفران . وهل يعتبر قولهم هذا توبة نصوحا ينالون بها من الله العفو والصفح والتعويض عن جنتهم ؟ لا يُعلم كيف كان أمرهم فى ذلك . وقد سئل قتادة عنهم : أمن أهل الجنة هم أم من أهل النار ؟ فقال للسائل : " لقد كلفتنى تعبا " يريد أن الأفضل التوقف فى أمرهم . ويمكن أن يقال إن الآية التى ختم الله بها القصة تشعر بالتهديد والوعيد مما يدل على أن فى توبتهم شائبة رياء ونفاق .

فقوله : ﴿ كذلك العذاب ﴾ معناه أن العذاب الذى نرسله فى دار الدنيا على الطاغين المخالفين ، والذى من شأنه أن يؤثر فى النفوس إزدجارا واتعاظا — إنما يكون مثل ذلك العذاب الذى نزل بأصحاب الجنة فأهلك حرثهم ، وأباد خضراءهم ، ونغص حياتهم . على أن عذاب الآخرة المعدّ لكل من طغى وبغى أشدّ وأعظم من عذاب الدنيا ، فياليت الطاغين — ومن جملتهم مشركو مكة — يعلمون ذلك فيزدجروا ويتعظوا . وهذا معنى قوله : ﴿ ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ .

ومغزى هذه الآيات أو القصة التى تضمنتها أن الله تعالى عامل كفار قريش معاملة المبتلى المختبر ، ليظهر حالهم ، ويكشف عن عوارهم : فهو تعالى قد أمدّهم بالنعم ، ويسر لهم أسباب الخفض والدعة وليان العيش ، فطغوا وبغوا وغفلوا عن القيام بواجب الشكر نحو مفيض هذه النعم عليهم ، فكان ذلك سببا لنزول البلاء والشدائد بهم ، وقد أشبهت حالتهم حالة أصحاب الجنة حَذْوَ القُذة بالقُذة .

وقد ذكروا أن الوليد بن المغيرة الذى نزلت فيه هذه الآيات كان فى سعة من العيش والرزق حتى كانت له البساتين من مكة إلى الطائف ، ومن جملتها بستان لا ينقطع نفعه شتاء ولا صيفا ، ثم ذهب كل ذلك كأمس الدابر جزاء كفره .

أما البلاء الذى نزل بأهل مكة فهو الجوع والقحط الذى دام فيهم سبع سنين حتى أكلوا العظام والجيف . ومن البلاء أيضا ما نزل بهم فى وقعة بدر من الأذى والقتل والأسر والتصفيد (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد) .

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾

[المتقون] هم المسلمون الذين أذعنوا لأمر الله ونهيه ، واتقوا عقوبته باجتناب معاصيه ، وأداء فرائضه . أما فريق [المجرمين] فهم الذين خالفوا الفريق الأول ؛ فلم يذعنوا ، ولم يتقوا ، بل جحدوا وكذبوا ، واستكبروا عن اتباع الرسول وأبوا . وهم الذين سماهم المكذبين ، ونهى نبيه عن إطاعتهم والخضوع لما داوروه عليه من إدهانهم ومصانعتهم .

هؤلاء المجرمون المكذبون من صناديد قريش كانوا يسلكون فى مقاومة البعثة وإفساد الأمر على المسلمين كل طريق : طورا بالشدة ، وطورا باللين . تارة بالجد والتحكم ، وتارة بالهزل والتهكم ، من ذلك قولهم للمسلمين : إن صح أننا نبعث فى دار ثانية كما تقولون — فلن تكون حالكم وحظكم فى تلك الدار بأحسن من حالنا وأوفر من حظنا فى هذه الدار ؛ فإن الذى فضلنا عليكم فى هذه الدنيا ، وجعل حظوظنا خيرا من حظوظكم فيها — هو الذى بيده الأمر فى الآخرة ، فيفعل كذلك أو يساوينا بكم على الأقل . يقولون هذا مذ يرون ماهم فيه من البُلَهْنِيَةِ والغنى وسعة الرزق ، وما عليه الصحابة رضوان الله عليهم من القلة والشظف وضيق العيش . وهذا القول منهم بالهزل والمغالطة ، أشبه منه بالجد والمناقضة [أى رد الحجة بالحجة] ، والا فإن دار الدنيا ليست دار ثواب وجزاء . وإنما هى دار عمل وابتلاء . يعرف فيها المطيع المتقى من المجرم الشقى . فمن شغله إجرامه عن طاعة الله وممارسة الفضيلة ، والعمل الطيب فى هذه الدار — فهو مُحَارَف محروم فى الدار الآخرة مهما كان مجدودا موسَّع الرزق فى الدنيا ، ولا يضر المتقين المطيعين أن يكونوا منقوصى الحظوظ من حطام الدنيا ؛ لأن تحصيل حطامها يكون بأسباب وطرائق كثيرا ما تيسرت للمكذبين العاصين الذين يمارسونها ، وتعسرت على المتقين الطائعين الذين يعرضون عنها . والفوز برضاء الله وحلول دار كرامته فى النشأة الآخرة إنما طريقه العمل الصالح وممارسة الفضائل والطاعات فى هذه الدار ، ولا يكون بسعة الرزق وكثرة الحطام وكنز النضار .

وهذا معنى قوله تعالى ﴿ إن للمتقين الآية ﴾ أى إن للمتقين المسلمين لا لغيرهم من المكذبين الجاحدين جنات النعيم . تلك الجنات الكاملة فى نعيمها والتى أشرف أحوالها ، وأكرم صفاتها أنها عند الله وبالقرب منه سبحانه . فمهما كان فى هذه الجنات الأخروية من صنوف النعيم التى قد تشبه من بعض الوجوه نعيم دنياكم أيها المكذبون — فإن قربها من الله سبحانه ، وكونها فى جواره الأقدس — يجعلها ممتازة على غيرها ، وجديرة بأن تكون للذين اتقوه وأطاعوه وآمنوا

مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾
إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ

برسوله . فهل يتصور أو يجول فى نفس عاقل أن يجعل الله جناتِ قربه ، ومنازلَ كرامته — للمكذبين الجاحدين ، ويحرم منها المتقين المسلمين ، أو يجعلهم فى حظوظها شرعا متساوين، كلا ! ما الله بفاعل ذلك . وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ﴾ ، يعنى فى الحظ والقسمة والكرامة والقرب منه تعالى .

ثم عاد فأثار خامد العقل فى نفوسهم بأسلوب آخر قائلا : ﴿ ما لكم كيف تحكمون ؟ ﴾ أى أين ذُهب بكم ، وكيف ضل ضلالكم حتى حكمتم هذا الحكم الغريب ، بجعلتم الأعداء كالأولياء ، وأحللتم الفجار ، منازل الأبرار .

يظهر من سياق هذه الآيات وتلوين الخطاب فى الردّ على المجرمين ، وتخطئتهم فى زعمهم — من أن لهم حظا من جنات النعيم مثل أو أوفر من حظ المتقين — أن أولئك المجرمين كانوا متشدّدين فى حكمهم ، مصممين فى رأيهم ، ولذلك وبخهم الوحى أشدّ توبيخ ، وردّ عليهم أبلغ ردّ .

﴿ تدرسون ﴾ من دَرَس الكتابَ إذا أقبل عليه يقرؤه ويتفهم ما فيه . وكان حق همزة (إنّ) فى قوله ﴿ إنّ لكم ﴾ الفتح لكونها واقعة فى مفعول تدرسون، لكنها كسرت لدخول اللام فى خبرها و ﴿ تخيرون ﴾ أصله تتخيرون . من تخير الشىء واختاره بمعنى أخذ خيره وأحسن ما فيه ، كما يقال تَنَخَّلَه وانتخله ، بمعنى أخذ منخوله وصفوته .

وقوله : ﴿ أم لكم أيمان علينا ﴾ ، أى أم عندكم ألايا وعهودٌ ومواثيق ثابتة علينا ، كما قدّمناها لكم بدخولكم جنات النعيم مع المتقين ؟ يقال : " لفلان على يمين بكذا " إذا كنت ضمنته له ، وحلفت له على الوفاء به . وقوله ﴿ بالغة ﴾ أى مغلظة مؤكدة متناهية فى الشدّة ، أو المعنى أن تلك الأيمان تبلغ يوم القيامة كاملة وافرة بحيث يقع البر بها من دون أن يُحنث بشىء منها . وجواب هذا القسم المحكى أعنى (أيمان علينا) هو قوله ﴿ إنّ لكم لما تحكمون ﴾ ومن ثم كسرت همزة (إنّ) على أن وقوع اللام فى خبرها مما يقتضى كسرها أيضا كما قلنا فى (إنّ) السابقة .

إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾

وقوله ﴿ إلى يوم القيامة ﴾ متعلق ببالغة أو بالظرف المستقر، أعنى متعلق علينا، أى أيمـان استقرت وثبتت علينا إلى يوم القيامة .

و[زعيم] بمعنى كفيل . والزعيم عند العرب هو الضامن للشيء المتكفل به ، ويكثر استعماله فى الذى يتكلم عن القوم ويحتج لهم ، ويحامى عن حقوقهم ومصالحهم ضامنًا لهم النجح والغلبة . يقول تعـالى : أعندكم أيها المكذبون الزاعمون أن حظوظكم من دار الكرامة يوم القيـامة مثل حظوظ المتقين إن لم تكن أوفر — كتاب سماوى أو غير سمـاوى يطمئن القلب إلى صحته ؛ فأنتم تقرءون فيه هذه البشارة ، من أن لكم أن تختاروا من حظوظ دار الآخرة ماتحبون ، وتحلون من بحابحها ومنازل كرامتها حيث تشتهون ؟ وهذا كقوله تعـالى : (أم لكم سلطان مبين ؟ فأتوا بكتابكم) ، وكقوله : (أم آتيناهم كتاباً فهم على بينةٍ منه) .

بل إذا لم يكن لديكم مثل هـذا الكتاب فهل كنا أقسمنا لكم قسما نحن مطالبون بالوفاء به اليومَ ويومَ القيـامة ، وهو أن يكون لكم حكمكم يومئذ فنعطيكم ماتمنونه وتحكمون به لأنفسكم من مساهمة المتقين فى أنصبائهم ، ومزاحمتهم فى دار ثوابهم وجزائهم ؟

﴿ سلهم ﴾ يامحمد ﴿ أيهم بذلك زعيم ﴾ من منهم الزعيم والمدره الذى يمكنه أن يحتج علينا بأنا كنا أقسمنا لهم على تلك المزاعم التى زعموها ، وأعطيناهم العهود والمواثيق على الوفاء بها .

لم يَدَعْ الخطاب الإلهى لهؤلاءِ المكذبين الجاحدين دليلا إلا نقضه ، ولا متكأ يستندون عليه فى مزاعمهم إلا قوضه ، فنفى أولا أن يكون لهم دليل عقلى على صحة ماذهبوا إليه ؛ فقال لهم : (أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون ؟) ففى هذا القول رجوع إلى العقل وتحكيمه فى المسألة ، ولاجرم أن العقل لايحكم بأن المسلم كالمجرم، وأن العاصى لله بمنزلة المطيع له فى الثواب والزلفى منه تعـالى . ثم نفى الخطابُ الإلهى أن يكون لهم دليل نقلى بذلك فقال : (أم لكم كتاب فيه تدرسون ، إنّ لكم فيه لمـا تخيرون) والقوم لم يكن أنزل عليهم كتاب يعتقدون صحته ، يبشرهم بأن لهم من منازل الكرامة وبحابح السعادة مااختاروا وأحبوا ، فإذا لم يكن هناك دليل عقلى ولا نقلى بقى الظن فى أنه تعـالى تألى لهم وأقسم أن يعطيهم يوم القيامة مايحكمون ويشـاءون . وهذا أيضاً لم يقع لأن رب العزة ذاته سبحانه ينفى أن يكون وقع ذلك منه ، وإذا كانوا يدعون وقوعه فَمَن مِن زعمائهم يجرؤ على إثباته والاحتجاج له ؟

أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ

ولم يبق للقوم من عذر سوى قولهم: إنّ (لهم شركاء) يشهدون لهم، ويذهبون مذهبهم فى أن لهم نصيبا مفروضا من جنات النعيم كما للمتقين.

والمراد بهؤلاء الشركاء إما الأصنام والطواغيت التى يعبدونها من دون الله، وهذه خُشُبٌ مسندة لا تنطق ولا تعرف كيف تثبت وجودها، بل لا تعرف أنها موجودة فضلا عن أن تشهد لغيرها، وإما أن يكون المراد بالشركاء عقلاء البشر ممن درس الحكمة وتلق تعاليم الأديان القديمة فتتبع آثارها، واستبطن أسرارها — يأتون يشهدون للمشركين من قريش بأنهم ناجون عند الله، وأنّ لهم حظًا من جنات النعيم.

فالله تعالى يقول لأولئك المشركين: إن كان لكم شركاء يشهدون لكم هذه الشهادة فأتوا بهم إن كنتم صادقين فى أنهم لديكم. لا جرم أن المشركين لا شهداء لهم من هذا القبيل، وبذلك تكون قد بطلت حججهم، وانقطعت معاذيرهم، وحقت الكلمة عليهم.

(يوم) ظرف متعلق بقوله قبله (فليأتوا بشركائهم) أى إذا كان لدى أولئك المشركين المكذبين شركاء يشهدون لهم بأنهم ممّن يدخل جنات النعيم مع المتقين فليأتوا بهم فى ذلك اليوم، وهو يوم كشف الساق، أى يوم القيامة. وهذا تهكم بالمكذبين، وإشارة إلى أنّ معاذيرهم وشفعاءهم غير نافعتهم فى ذلك اليوم شيئًا.

أو أنّ الكلام لا تعلق له بالإتيان بالشركاء، وإنما هو كلام مستأنف يتهدد الله به المكذبين المجرمين الذين ذكر نموذجا منهم الوليدَ بن المغيرة، ووصفه بقوله: (ولا تطع كل حلاف مهين) وذكرنا ثمّة أنّ الوليد كان يقول لبنيه وعشيرته كلما آنس منهم ميلا له صلى الله عليه وسلم وارتياحا إلى دعوته: "لئن تبع دين محمد منكم أحد لا أنفعه بشيء أبدا" مُدِلا بثروته وسعة رزقه. فهذا وأمثاله يذكّرهم الله تعالى بذلك اليوم، يوم كشف الساق وأهواله العظام.

و[كشف الساق] فى كلام العرب يراد به اشتداد الهول وعظم الأمر. والأصل فى ذلك أنّ المرءَ إذا نزلت به نازلة، أو اهتم لمباشرة أمر من الأمور والمضى فيه — شمر عن ساعده،

أو أدار ذَلاذِله [أطراف ثوبه المتدلية] فى وسطه، ومنه قولهم : "فلان كميش الإزار" أى مشمِّره قالوا : وهو مثل فى الجد والمضاء وقوة الإرادة . يفعلون ماذكر من التشمير عن السواعد والسوق عند الشروع فى العمل الجد، ومباشرة ما يهم من الأمر، ولا سيما ما فيه مخاطرة بالنفس، كمنازلة بطل، أو مصارعة أسد، أو إطفاء حريق، أو انتشال غريق . وقد يفعلونه يوم الخوف والذعر والهزيمة . قال ابن قيس الرقيات يصف شدةً :

تُذهِل الشيخَ عن بنيه وتُبدِى عن خِدامِ العقيلة العذراءِ

والخِدام بكسر الخاء الخلاخيل، واحدها خَدَمة، فالعذراء إنما تكشف عن ساقها فى ذلك الوقت ليكون مساعدا لها على التملص والفرار .

أما المعنى الأوّل فهو الأعم الأغلب فى استعمالهم ، فيقولون : " قامت الحرب على ساق " أى اشتدّت وتعاظمت ، وقال حاتم :

أخو الحرب إن عضَّت به الحربُ عضها وإن شَمَّرت عن ساقها الحربُ شَمَّرا

أى وإن اشتدّ هول الحرب شمر لها ، واصطلى نارها . وقال سعد بن مالك جد طرفة ابن العبد فى أبياته المشهورة :

والحرب لا يَبْقَ لجا حِمِها التخيلُ والمِراحُ
إلا الفتى الصبارُ فى النـ ـنجدات والفَرَسُ الوَقاحُ

إلى أن قال :

كشَفَتْ لهم عن ساقها وبدا من الشر الصراح

فالأصل فى هذا التعبير — أعنى كشف الساق مرادا به الشدّة والهول — أن يكشف عن الساق بالفعل عند الخطب واشتداد النازلة ، ثم كثر واستفاض حتى صار يفهم منه اشتداد الأمر ، واستفحال الخطب ، ولو لم يكن ثمة ساعد ولا ساق ، ولا كشف ولا تشمير .

وكذلك الشأن فى كل ما ذهب مثلا من الجمل والتراكيب ، كقولهم : "فلان يده مغلولة" كناية عن كونه ممسكا شحيحا ، ومنه قوله تعالى (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك) ، أى لا تمسكها عن الإنفاق كل الإمساك ، وأصله اعتقال اليد بالغل وهو القيد ، فلا تنطلق فى العمل ، ولاتتصرف فى بذل المال ، لكن هذا التركيب [أعنى مغلول اليد] يستعمل فى وصف البخيل ولو كان أقطع لا يد له ، ولا غل يغلها ، ومثل ذلك ما حكى الوحى عن اليهود من قولهم (يد الله مغلولة) أى مقبوضة عن إدرار الرزق عليهم ، وهو كناية عن وصفهم له بالبخل تعالى وتقدّس .

وهكذا استعمال [كشف الساق] فى هول يوم القيامة ، يراد به الهول وفظاعة الأمر ، وإن لم يكشف عن السوق بالفعل ؛ فإن يوم القيامة — وإن تكن فيه سوق — لا ثياب تلبس ولا ذلاذل تكشف فى ذلك اليوم العصيب ، كما ورد الحديث فى وصفه : " يحشرون حفاة عراة غُرلا " .

وإنما أطلنا الكلام فى هذا تنبيها إلى أن أفضل ما يحمل علية كلام الله المعجز من الأساليب ما عرف عند بلغاء العرب وتداولته ألسنتهم ، وشاع استعماله بينهم . والعدول عن هذا المعنى الكنائى إلى غيره — كالقول بأن المعنى : يكشف عن ساق [الرحمن] تعالى وتقدّس ، اعتمادا على بعض الآثار الواردة فى ذلك ، أو عن ساق [العرش] أو ساق [ملك مهيب] من الملائكة — كل ذلك لا حاجة إليه بعد الشواهد التى ذكرناها من أقوال فصحاء العرب ، ومختلف أساليبهم ، فى بليغ تراكيبهم ، مما يدل دلالة واضحة على ما قلناه . ويكفى شاهدا نقليا عليه أنّ ابن عباس كان يقول فى تفسير (يوم يكشف عن ساق) : يكشف عن أمر عظيم ، ألا تسمعون العرب تقول : " وقامت الحرب بنا على ساق " وتقول " كشف هذا الأمر عن ساقه " إذا صار إلى شدّة .

بقى أن يقال : وما ذلك اليوم الذى يُكْشف فيه عن ساق وقد خوّف الله به المكذبين ؟ أيوم القيامة هو ؟ أم يوم من أيام الدنيا ؟ والمتبادر من الكلام والمفهوم من السياق أنه يوم القيامة وأى يوم يوصف بأنه يكشف فيه عن ساق ، وأن أبصار الجاحدين فيه خاشعة ، وترهقهم فيه ذلة — غير يوم القيامة ؟؟

وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ
وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾

وذهب أبو مسلم الأصفهانى مذهبا فى تفسير هذه الآيات لا أراه بالبعيد ؛ فقد قال : إن ذلك اليوم فى الدنيا ؛ لأن الله تعالى قال فى وصفه : ﴿ ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون ﴾ ويوم القيامة لا يُدعى فيه إلى عبادة ، ولا يُكلَّف أحدٌ سجودا ، فلا جرم أن يكون ذلك اليوم الذى يكشف فيه عن ساق هو أيام العجز والشيخوخة ، أو ساعات النزع والحشرجة التى تلم بأولئك المكذبين على حد قوله تعالى (فلولا إذا بلغت الحلقوم) هذا ما قاله أبو مسلم .

وحل معنى الآية على قوله هذا : اذكروا أيها المعاندون المكذبون لمحمد صلى الله عليه وسلم يوم الهول العظيم الذى يتزل بكم عند آخر يوم من أيام حياتكم : يوم يُعول ذووكم ، وتندب نساؤكم ، فيمزقن ثيابهنّ : ويقطّعن شعورهنّ ، اذكروا أنكم إذا دعيتم فى تلك الساعة إلى الإيمان بالله والسجود له وقد ظهرت لكم أمارات القيامة وصُدِّقَ نبيكم الذى كنتم تكذبون به فى حال صحتكم — فلا تستطيعون السجود ؛ لما نزل بكم من الموت ، وحلَّ بجسمكم من الوهن والضعف . فى ذلك اليوم تضعف أبصاركم عن الحركة فتخشع ، ويَغشى وجوهَكم الذلُّ فتُسفَع . فى ذلك اليوم تتذكرون أنكم كنتم تُدْعَوْن إلى السجود وأنتم صحيحون قادرون ، فتأبون وتستكبرون ، فذوقوا اليوم ما كنتم به تكذبون .

فأنت ترى أن حل الآيات على هذه الصورة لا مانع منه ، ولا منافى له ؛ لا من السياق ، ولا من اللحاق .

أما حلها على أن المراد به يوم القيامة فالأمر فيه ظاهر أيضا . ويكون المعنى هكذا : على هؤلاء المكذبين أن يذكروا ذلك اليوم العظيم الذى يشتد فيه الكرب ، ويفدح الخطب ، يوم يوبخون على ما فرّطوا فى جنب الله ، وكذبوا من بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ، فيقال لهم : هاكم قد تبين لكم صدق الرسول ، وما دعاكم إليه ، فقوموا فاسجدوا لله ربكم ، إن كنتم فاعلين ! ! ومن أين لهم الاستطاعة يومئذ على السجود وقد حيل بينهم وبينه بما علموا أن هذا غير نافع فى ذلك اليوم ، ولا الوقت وقته ، وأن طلب السجود منهم إنما هو طلب توبيخ وتعنيف ، لا طلب تشريع وتكليف ، فتخشع إذ ذاك أبصارهم فلا تعود ترفع ، ويغشى سوادُ الذل وجوهَهم بعد أن كانت بوميض العظمة والكبرياء تضئ وتلمع ، ويذكرون أنهم ﴿ كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون ﴾

فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾

خالون من مثل هذه الموانع التى اعترضتهم يوم القيامة فيستكبرون، وبكتاب الله يكذبون ، فبأى حديث بعده يؤمنون ؟ ؟

كان صلى الله عليه وسلم يَضيق صدرُه أحيانا من عناد المشركين وتكذيبهم له وصدّهم الناس عن الدخول فى الإسلام كما مر عن الوليد بن المغيرة الذى ذكر التنزيل طرفا من عناده وصلّه وسوء أخلاقه ، وكثيرا ماشُغل قلبُه الشريف بالفكر فيهم، والتمنى لو أنّ الله يكفيه شرهم ، ويكف عنه عاديتهم، فكان الله تعالى يحض نبيه على الصبر والثبات ، ويذكره بما أنعم الله به عليه من صنوف النعم وعظيم الآلاء ، ويصف له ما سوف يلاقيه أولئك المشركون من شديد العذاب على تكذيبهم له وإعراضهم عن الإسلام ، ويضرب له مثلا إخوانه من الأنبياء والمرسلين وما لاقوا من عناد أممهم ، وكيف كانت العاقبة لهم ، مسليا له ، وملقيا روح الرجاء والأمل فى قلبه الشريف .

ومن ضروب التسلية قوله فى هذه الآية — وكأنه قد آنس منه شيئا من القلق واضطراب القلب بشأن أولئك المكذبين وفرط مقاومتهم له — ﴿ فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث ﴾ .

و[الحديث] القرآن والوحى والآيات التى كان يتلوها صلى الله عليه وسلم على المشركين مذكرا ومحذرا . ومعنى (فذرنى ومن يكذب) دعنى وإياه ، وثق بى ، وفوض أمر الانتقام منه إلى ، فإنى كافيك ذلك ، وقادر عليه ، وعالم بطريق الوصول إليه ، فأرح نفسك من جهته ، ولا تشغل قلبك به ، وفى هذا الأسلوب من تهديد المكذبين وتخويفهم ما فيه .

وكأن قائلا يقول : وما أنت صانع بهم يارب ، وعلى أى طريقة من طرائق الأخذ والنكال تسير بهم ؟ فقال ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملى لهم ... الخ ﴾ :

و[الاستدراج] أن تنزلّ بالمرء درجة فدرجة إلى حيث تريد به . فقوله (سنستدرجهم) سننتقل بهم من طورٍ إلى طور ، ومن حالةٍ إلى حالة يعجبهم ظاهرها ، ثم لا يشعرون بما خبئ لهم فى طيِّها ، حتى يردوا العذاب ، ويتورطوا فى الشقاء .

وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾

وقوله ﴿ وأملى لهم ﴾ أى أمهلهم وأؤخرهم ؛ فيكون مشتقا من [المَلاوة] وهى البرهة من الدهر ، ويكون المعنى : إنى أفسح لهم فى أعمارهم ، وأنسأ فى آجالهم برهة من الزمن ، ثم أنزل بهم انتقامى أخيرا .

ويحتمل أن يكون معنى (أملى لهم) أرخى لهم العنان : يسرحون ويمرحون ، كما يشاءون ، ثم لا يشعرون بأنفسهم إلا وهم فى العذاب والبلاء متورطون ؛ فيكون (أملى) على هـذا مشتقا من [المَلا] وهو المتسع من الأرض . يقال أمليت للبعير إذا وسّعت له فى قيده أو زمامه وأرخيته له بحيث يسهل عليه الرعى أنى شاء .

وكلا التعبيرين [الاستدراج] و [الإملاء] تمثيـل لتأخير انتقـام الله من أولئك المكذبين وتمتيعه إياهم بالصحة والبنين والرزق ورغد العيش وألوان النعم ؛ فيشغلهم كل ذلك عن النظر فى آيات الله واتباع الرسول والإيمان به . وقد قامت لديهم الأدلة وتكاملت حجج الله على صدقه وصحة نبوته صلى الله عليه وسلم ، ولكنهم تمـادوا فى غفلتهم هذه حاسبين أن تأخير العذاب عنهم ، وإنساء حلول البلاء بهم ؛ لمزية فيهم اقتضت ذلك ، بل ربمـا ظنوا — كما أشار الله فى الآيات السابقة — أن سيكون لهم يوم القيامة نصيب من بحابح الجنـان كما يكون للمسلمين المتقين ، بحجة أن هؤلاء لا يفضـلونهم بشىء ، وأنهم هم لو لم يكونوا على خير وزلفى من الله لـما متعهم بصنوف النعم ، ورغد العيش ، والمدّ فى العمر . ويبقون هكذا فى غرورهم ، وغفلتهم عن سنن الله فى خلقه ، ومثُلاته فى الأمم قبلهم حتى تنزل بهم أشباه تلك المثلات بغتة وهم لا يشعرون ولا ينتظرون ، وهذا معنى قوله (من حيث لا يعلمون) .

وهكذا كان شأن مشركى العرب الذين كذبوه صلى الله عليه وسلم ، وجحدوا نبوّته ؛ فإنهم ما زالوا فى غيهم ، وفرط عنادهم ، حتى نزل بهم البلاء ببدر وبقية المواطن ، ثم كان الفتح وظهور الإسلام .

وقد سمى الله تعالى تأخير العذاب عنهم ، وتمتعهم بالصحة والرزق وطول العمر — وهو فى طى ذلك قد قدّر عليهم الشقاء ، وأرصد لهم الانتقام — سماه [كيدا] لمشابهته الكيد فى الظاهر ، وإلا فإن الكيد من صفات العاجز الذى يحتال على عدو له قوى لا يقدر على مبادأته بالبطش ،

أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾

ولا مصارحته بالانتقام ، فيظهر له رفقا ، ولين جانب ، وهو فى خلال ذلك ينصب حبائل الشر حتى يقع فيها ، هذا هو الكيد ، والله تعالى منزه عنه ، وإنما الكلام تمثيل ، وتسمية للشيء باسم ما يشبهه ، وما هو فى صورته .

[المغرم] و[الغرامة] أن يلتزم الإنسان أداء ما ليس عليه ، فيعطيه وهو كاره ، و[أثقله] حمّله شيئا ثقيلا ، والمراد من (الغيب) ما ثبت فى الغيب ، وقُدّر فى علم الله ، وقوله ﴿ يكتبون ﴾ أى يكتبون من ذلك المقدّر فى الغيب ، وينسخون منه ، ويقرؤه بعضهم على بعض احتجاجا به واستنادا إليه ، و﴿ أم ﴾ للإضراب والانتقال من حديث إلى حديث آخر يجدر بالمخاطب أن يفكر فيه ، ويهتم به أشدّ من اهتمامه بالحديث الأول : كأنّ المحدّث يقول : دع هذا الذى حدّثتك به واسمع ما هو أعجب وأغرب وأولى بالاهتمام .

والخطاب الإلهى بعد أن هدّد المشركين المكذبين ذلك التهديد المخيف مذ قال تعالى : (ذرنى ومن يكذب) أصبح من المحتمل أو المنتظر أن يكون قد خامر أولئك المكذبين خوف أو خشية مهدت فى نفوسهم طريقا لقبول الحق ، وموضعا للتأثر بالوعظ والإرشاد ، فرجع الوحى إلى إلانة القول لهم بما يشبه العتاب ، لتحريك عاطفة التناصف فى قلوبهم ، فقال تعالى : (أم تسألهم الخ) أى بل الأعجب من كل ذلك يا محمد أنّ القوم يأبون قبول ما أتيتهم به من الحق والهداية حتى كأنك تطلب منهم عليهما أجرا يبهظهم ، ويثقل عواتقهم .

ثم عجّب من حالهم بأسلوب آخر فقال : (أم عندهم الغيب فهم يكتبون) أى إذا كانوا لم يظنوا أنك تتقاضاهم أجرة باهظة فلِم يعاندون كل هذا العناد ؟ أعندهم اطلاع على علم الغيب ، وما أُثبت فى اللوح المحفوظ ، فهم ينسخون عنه من ضروب الحجج ما يساعدهم على النجاة ، والتفلت من التبعة ، ويضمن لهم الفوز ودخول جنات النعيم مع المتقين ! !

وإلى هنا يكون قد انتهى الكلام مع أولئك الجاحدين بما يفحمهم ، ويقطع حجتهم ، ويجعل الحوار معهم ضربا من العبث واللغو ، فلم يبق إلا تثبيت قلب النبى صلى الله عليه وسلم ، وحمله على الصبر والاعتصام بالله فى إنجاز وعده ، وإتمام أمر دعوته ، فلا يمل ولا يضجر ولا يكون منه ما كان من سيدنا يونس النبى عليه الصلاة والسلام ، وقد قص الوحى علينا فى هذه السورة موجزا من خبره فقال (فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت) الآية .

فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾
لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾

[حكم الله] الذى طلب تعالى من نبيه أن يصبر عليه هو الإملاء للمكذبين وتأخير إنزال العقوبة بهم حسبما أشار إليـه بقوله (سنستدرجهم) (وأملى لهم) . وقيل إن ثقيفا لما آذوه صلى الله عليه وسلم وسلطوا عليه عبيدهم وأشرارهم أراد أن يدعو عليهم، فأنزل الله عليه ﴿فاصبر لحكم ربك﴾ أى لا تعجل فى الدعاء على القوم بالعذاب ، واصبر حتى يحين وقته المقدّر .

وذهب جمع من المفسرين إلى أن[حكم الله]الذى كلف تعالى نبيه[الصبر عليه]ما كان من رماة النبل فى وقعة أحد : من مخالفة أمره صلى الله عليه وسلم وانكشاف آخرين عنه ، حتى هم من أجله بالدعاء عليهم ، فنهاه ربه قائلا له : (فاصبر لحكم ربك) ؛ فإنّ ما فعلوه حكم قضاه ربك تعالى ، وفى طى فعلهم حِكم وأسرار ؛ فاصبر ولا تعجل . غير أنّ قوله تعالى لنبيه : ﴿ولا تكن كصاحب الحوت﴾ وهو يونس النبى عليه السلام ربما أيد القول الأوّل ، من أنّ المراد بحكم الرب هو عناد المشركين ، وتكذيبهم للنبى صلى الله عليه وسلم ، وتأخير نصرته عليهم . وإنّ خبر يونس مع قومه ، ومغاضبته بسببهم ، وضيق صدره من عنادهم ، وعدم نزول العذاب بهم — يشبه بعض الشبه أمر نبينا صلى الله عليه وسلم مع قومه ؛ فإنهم لجوا فى مقاومته ، وأكثروا من مكايدته ، والتهكم بما كان يوعدهم به من العذاب ؛ فكان صلى الله عليه وسلم يرى أحيانا أن قد حان الوقت لحلول عقوبة بهم تفسح الطريق أمام الدعوة وانتشار الإسلام ، وآونة كان يضيق صدره الشريف من تأخر ذلك عنهم ، غير أنّ الحق تعالى قال له أوّلا : ذرنى وإياهم ، وثق بأنى قادر على إهلاكهم ، فأرح قلبك من هذا القبيل ، وقال له ثانيا : إنّ لربك سننا حكيمة لا تتغير فى أمثال هؤلاء الأمم المكذبة فاصبر لحكمها يا محمد ولا تعجل ولا تغضب ولا تكن كالنبى يونس . ثم وصف تعالى لنبيه ما وقع ليونس مع قومه قائلا : ﴿إذ نادى وهو مكظوم﴾ أى لا تكن مثله فى الضجر والمغاضبة وقت أن رفع صوته بالدعاء على قومه ، وهو مغموم مملوء غيظا منهم ، وهذا معنى قوله (مكظوم) ؛ فإنه اسم مفعول من كظم غيظه إذا ردّه وحبسه ، وأصله من كظم السقاء إذا ملأه .

ثم إنّ الله أخبر بأن يونس ﴿تداركه﴾ فى آخر الأمر ﴿نعمة من ربه﴾، وهى لطفه به مذ وفقه إلى التوبة والإنابة ، فعفا عنه ، واستخلصه لنفسه ، وقال : إنه لو لم تتداركه تلك النعمة ﴿من ربه لنبذ بالعراء﴾ وهى الأرض الفضاء لا ساتر فيها ﴿وهو مذموم﴾ أى ملوم على ما كان منه ، لكنه لما تاب

فَٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾

نبذه الحوت بالعراء من دون أن يكون مذموما ، وقد قال تعالى فى سورة الصافات بشأن يونس أيضا (فالتقمه الحوت وهو مُليم) ، أى التقمه وهو متلبس بما يلام عليه ، وقال فى سورتنا هذه لولا أنه تاب (لنبذ بالعراء وهو مذموم) فأفاد أنه حينما نبذه الحوت لم يكن مذموما وهو بمعنى لم يكن مُلِيمًا أى لم يكن مستحقا للوم ، فهو صلوات الله عليه دخل بطن الحوت ملوما ، وخرج منه غير ملوم ولا مذموم ، فالعمدة فى جواب قوله (لولا أن تداركه نعمة) ليست هى قوله (لنبذ بالعراء) إذ لو كان النبذ بالعراء هو العمدة لأفاد أنه لم ينبذ مع أنه نبذ بالفعل ، وإنما العمدة فى الجواب هى الجملة الحالية ، وهى قوله : (وهو مذموم) ، فالنبذ فى العراء حصل ، ومداركة النعمة ليونس كانت فى توبته مذ كان ببطن الحوت بحيث كان وقت أن نبذه الحوت غير مذموم ولا ملوم.

ولفظ [النعمة] تأنيثه غير حقيقى ، وقد فصل بينه وبين فعله بضمير المفعول ، ولذلك جاز تذكير فعله فقيل (تداركه) . على أن ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهما قرآها (تداركته) بالتاء .

وقوله :﴿ فاجتباه ربه فجعله من الصالحين ﴾ معناه أنه تعالى بعد أن تداركه بنعمته اصطفاه لنبوته ، وجعله من الصالحين أى الأنبياء المرسلين العاملين بما أمرهم ربهم ، والمنتهين عما نهاهم عنه .

قلنا إن الوحى قص علينا خبر يونس فى هذه السورة بموجز من القول ، لكنه فى مواضع أخر من القرآن ذكره بأكثر إسهاب ، وها نحن نورد الخبر بأطرافه مقتصرين فيه على ما ثبت وصح فى النصوص من دون حكاية ما زاده القصاص :

انفصل نبى الله يونس عن قومه مغاضبا ظانا أن الله غير مؤاخذ له ، وظل سائرا كهيئة الهارب حتى بلغ شاطئ البحر، فركب سفينة مشحونة للسفر، وفى أثناء مخر هذه السفينة فى البحر جرى من الأمر ما أدى إلى الاقتراع والمساهمة بين ركابها ، فوقعت القرعة على يونس ، فألقى بنفسه فى البحر ، فالتقمه أحد حيتانه ، ولم يخبرنا الوحى عن سبب خروجه من قومه مغاضبا ، وإنما أشار تعالى بقوله : (فظن أن لن نقدر عليه) إلى أن غضب يونس لم يكن مرضيا لله تعالى .

أما الاقتراع بين ركاب السفينة الذى ألجأ يونس إلى إلقائه نفسه فى البحر فسببه والله أعلم اكتظاظ السفينة بركابها وأثقالها ، وغلبة العواصف واعتلاج الأمواج عليها ، فرأى أهلها أن يخففوا عنها فألقوا أثقالها ، ثم لما لم يف ذلك بالحاجة ، اضطروا أن يلقوا بعض الركاب أيضا ، ورأوا من العدل أن يقترعوا بينهم على من يلقونه ، فأصابت القرعة يونس ، فألقى نفسه مكرها أو مختارا ، ولم يكن وقوع القرعة عليه من دون سائر رفاقه ، والتقامُ الحوت له — أثرا من آثار الاتفاق المحض ، وإنما هو لعمرى أثر من آثار المشيئة الإلهية : ليكون ذلك جزاء لمغاضبته ، ومنبها له على فعلته . ثم إن يونس لما استقر فى بطن الحوت ، وتجرد بالكلية عن عالم الأسباب إلى عالم الملكوت ، وشعر بخطر ما هو فيه ، وخطأ ما كان منه ، انتبه إلى وجوب الرجوع إلى ربه بالتوبة والإنابة ، فرفع صوته فى تلك الظلمات قائلا : (لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين) . وكأن المعنى فى هذه الاستغاثة : إنى يارب قد ظلمت مذ غفلت عن بعض سننك الكونية فى إيمان الأمم وجحودها ، وانحطاطها وصعودها ، وانتعاشها وخمودها ، فسألتك لأمتى "أهل نينوى" مالم تجر عادتك به ، وما هو مدابر لسننك الحكيمة ، ومشيئتك القديمة ، فسقتنى يارب إلى هذه الظلمات ، وجعلتنى فى هذا القبر المتحرك قبل إبان الممات ، منبها لى بذلك إلى أن تأخير انتقامك عن قومى لم يكن ضعفا منك ، ولا عجزا عن تبديل السنن والنواميس الكونية ، وإنما هو اطراد لها ؛ فلا يختل نظام الكائنات ، وتنبيه للبشر إلى لزوم مراعاتها ، فلا يعتسفون المتاهات ، أو يقعون فى الضلالات ، وإنك يا رب إذا شئت غيرت سنن الكون ونواميسه ، كما غيرت نواميس الهواء والحياة والتنفس ودورة الدم فى الجسد ، مذ حفظت علىّ حياتى ، ودبرت لى معيشتى وأنا فى بطن الحوت .

فلا غرو أن تكون تلك التسبيحة من سيدنا يونس ، وهذا الاعتراف بأنه كان من الظالمين خير وسيلة لقبول توبته وعفو الله عنه .

وقد ذكر الله فى كتابه فى تتمة خبر يونس هذا أنه تعالى لبى دعوته ، وقبل توبته ، ولولا ذلك لبقى فى بطن الحوت إلى يوم القيامة .

وقد ألهم تعالى ذلك الحوت فنبذ يونس إلى أرض فضاء لا سترة فيها سوى شجرة من فصيلة النباتات التى لا ساق لها مما يمتد على وجه الأرض : كالقثاء والبطيخ والقرع ، وهو الذى غلب عليه فى أيامنا اسم اليقطين ، فالله أعلم أية ذلك كانت تلك الشجرة اليقطينية . غير أن قوله تعالى (وأنبتنا عليه) يشعر بأن تلك الشجرة قد تعرشت على قائم شاخص كجذع شجرة مثلا بحيث أمكن ليونس أن يأوى إليها ، ويستقر تحتها . ويشير السياق إلى أنه قد انتفع بها . ولم يصرح الكتاب بأية الطرائق كان ذلك الانتفاع . ولعل قوله (فنبذناه بالعراء وهو سقيم) يشير إلى أن الانتفاع كان علاجا لسقمه . ثم إن يونس رجع بعد ذلك إلى قومه الذين فارقهم مغاضبا ؛ فآمنوا به ، وتلقوا الهداية عنه ، حتى أذن الله بانقراضهم .

هذا هو خبر سيدنا يونس حسبما أخذناه من النصوص الصحيحة ، وليس فيه ما يستبعد وقوعه ؛ اللهم إلا التقام الحوت له ، ومكثه فى بطنه حينا من الزمن حيا يرزق ، ثم نبذه فى ذلك الفضاء .

على أنه إن حق لأهل القرون الماضية أن يستبعدوا خبر صاحب الحوت فلا يحق لأبناء عصرنا ذلك الاستبعاد ، بعد أن رأوا بأعينهم سبح الكثيرين منهم فى بطون الغواصات أياما متطاولات ، تحت البحار الطاميات ، وطيرانهم مثل ذلك فى أجواز السموات ، فالإله الذى خلق العقل البشرى ، ومهد له سبيل الوصول إلى مثل هذه العجائب ، ألا يكون قادرا على أن ييسر حصول مثله لعبده يونس ببعض الأسباب التى لم تزل مجهولة لنا ؟ ؟

هذا ما نقوله للتسائل المتعجب . أما نحن معشر المسلمين فنؤمن بما ورد فى الكتاب مادام أنه غير محال فى العقل ، ونرى أن الارتياب فيه لمخالفته نواميس المادة المعروفة اليوم لا يليق بمسلم يعتقد بخالق هذه المادة ، ومبدع تلك النواميس .

أما ما روته الأسفار القديمة من خبر يونس الذى تسميه" يونان " فهو أنه من بنى إسرائيل من قرية "مشهد" على مقربة من الناصرة ؛ قد أرسله الله إلى الأشوريين فى نينوى نحو سنة ٨٢٥ قبل المسيح ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، فتقاعس يونس عن الذهاب إليهم ، بغضا

فيهم ، وذهب إلى يافا ، فركب سفينة مسافرة إلى طرسوس " ترسيس " ، فأثار الله عليه أنواء البحر قصاصا له ، فلما ألقى النوتية القرعة ليعرفوا من هو السبب فى هذه المصيبة وقعت القرعة على يونس ، فاعترف بذنبه ، وقال لهم ألقونى ، فألقوه ، فابتلعه حوت ، وصلى وهو فى جوفه صلاته المعروفة ، وبعد ثلاثة أيام قذفه الحوت إلى البر ، وكرر الله عليه الأمر بالذهاب إلى نينوى وإنذار أهلها ، فذهب إليهم ، وأنذرهم الهلاك بعد أربعين يوما ، فآمنوا وتابوا ، فمنع الله عنهم الهلاك الموعود ، فغضب يونس لظنــه أن ربه جعله كاذبا فى نظر الأشوريين ، أو لأنه تعــالى عفا عن القوم ولم يعذبهم ، وخرج يونس من نينوى ، واتخــذ لنفسه مظلة جلس تحتها ريثما يرى ماذا يصيب المدينة ، فأنبت الله يقطينة عرشت على المظلة ، ووقته حر الشمس ، فسر يونس بها لكنها لمــا يبست ، ولذعه الحر ، تمنى لو مات واستراح ، فأوحى الله إليه : " يايونس ! أشفقت على اليقطينة ، التى لم تُرَبِّهَا ، ولم تتعب عليها ، وهى بنت ليلتها ، أفلا أشفق أنا على نينوى المدينة العظيمة التى فيها اثنتا عشرة ربوة [1] من أناس لا يعرفون يمينهم من شمالهم ، عدا ما فيها من البهائم الكثيرة " ! ! ! فخجل يونس من هذا التأنيب ورجع إلى بلاده ، فاعتزل مع أمه فى محل قريب من " صور " حتى مات ، وبين بيروت وصيدا اليوم مزار يقال له "النبى يونس" وعلى مقربة من نينوى تل يسمى " تل النبى يونس " و " تل التوبة " .

قالوا : وأما الحوت الذى ابتلعه فلا يعرف نوعه ، وذهب الكثيرون إلى أنه من النوع المسمى كلب البحر ، وقد عثر على واحد من هــذا النوع عند رأس بيروت طوله عشرون قدما كما عثر على واحد آخر فى جزيرة القديسة "مرغريت" فى فرنسا وفى بطنه فرس كامل الأعضاء ، فلا يستغرب إذن أن يبلع الحوت المذكور يونان النبى ا هـ .

وفيما ذكرته هذه الأسفار من خبر يونس ما لا يجوز لنا معشر المسلمين التصديق به مثل امتناعه عليه السلام عن تبليغ الرسالة إلى الأشوريين بغضا فيهم ، ومثل غضبه على ربه لأنه عفا عنهم .

---

(١) الربوة بكسر الراء الجماعة العظيمة من الناس نحو عشرة آلاف أما الربوة بفتح الراء فهى فى اصطلاح الحُسَّاب اليوم عشر كرات والكرة عندهم مائة ألف . المؤلف .

وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ

﴿ إن ﴾ هذه هى المؤكدة، كانت مشدّدة فخففت ، و بعد التخفيف بطل عملها و بقى تأكيدها. واللام فى ﴿ ليزلقونك ﴾ هى اللام الفارقة الدالة على كون (إن) هذه مؤكدة لا نافية .

ومعنى [يزلقونك] يجعلونك تزلّق وتزل : زَلِقَتْ قدمُه زلت ، وزَلّقَه غيره وأزلقه أزله ، والموضع الذى تزلق فيه القـدم وتزل يسمى " زَلقا " و " زُلّا " . و (ليزلقونك) قرئ ثلاثيا ورباعيا . وهما بمعنى واحد كما قلنا . وأزلق فلانا ببصره نظر إليه نظر متسخط كاره ؛ كأنه من شـدّة التحديق إليه وفرط إلقـاء النظر الشزر عليه يكاد يُزْلِق قدمه ويرميه ، فتلك النظرات المعنوية أصبحت لشدّتها وحدّتها كأنها مادية محسوسة، تصيب الشخص فتدفعه دفعا، ثم تصرعه صرعا . ومنه قول الشاعر :

يتقارضُون إذا التقَوْا فى موطن　　نظرا يُزِلُّ مواطئَ الأَقـدام

والضمير فى ﴿ سمعوا ﴾ يرجع إلى الكافرين المكذبين المتحدّث عنهم من أوّل السورة . و ﴿ الذكر ﴾ هو الوحى والقرآن ، وسمى ذكرا لتضمنه موعظة وتذكيرا وإرشادا .

أمر الله نبيـه بالصبر ، وانتظار حكم الله فى أعدائه الذين يبغون به العنت ، ويتقوّلون عليه الأقاويل ، ووعظه بألا يكون كصاحب الحوت فى الضجر وحب الانتقـام من قومه ، ولمـا جاء إلى ختم السورة ختمها بما يذكر بفاتحتها ، ويربط نهايتها ببدايتها ، فكانت هذه الخاتمة كفذلكة الحساب ، تجمل ما تقدّمها من التفصيل والإسهاب .

وبيان ذلك أنّ الله تعـالى نفى فى أوّل السورة عن نبيه ما يرميه به مشركو مكة من الجنون والفتون حينما يسمعون منـه تقبيح عبادتهم ، والتهكم بآلهتهم ، وما كان ينذرهم به من البعث والحساب ، والجنة والنـار ، وغريب أوصافهما ، فكانوا يثيرون عليه صلى الله عليه وسلم جلبة وضجيجا ، ويصفونه بماهو براء منه ، لتنصرف قلوب الناس عنه ، ولا يألون فى تكذيبه وإنكار ماأتاهم به من الوحى والقرآن . وكانت جميع آيات هذه السورة حوارا وجدالا مع أولئك المكذبين وقد تضمنت من أساليب التذكير أبلغها، ومن الأمثال أغربها وأعجبها ، كقصة أصحاب الجنة : ضربهم الله مثلا للمكذبين الذين كفروا نعمة الله عليهم ، ونخبر صاحب الحوت : ضربه الله مثلا لنبيه صلى الله عليه وسلم ، يحذره فيه أن يفعل فعله .

وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾

ثم عاد لحقق أصل الدعوى ، وأتى بنتيجة ما فصل من المقدمات ، فقال : (وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك) الآية والمعنى أن المكذبين إنما يبغضونه صلى الله عليه وسلم ويحسدونه على ما اختصه الله به من الوحى ، وآثره من النبوة والكرامة ، فهم حينما يسمعون منه الذكر ، وهو القرآن يتلوه عليهم منذرا ومحذرا ، كانوا يوجهون إليه من شدّة الغيظ والحنق نظرات أصبحت من حدّتها وقوّتها بحيث تكاد تصرعه صلى الله عليه وسلم وتلقيه على الأرض ، وهذا من أبلغ ما يقال فى وصف نظر الغيظ والحقد .

وقوله تعالى ﴿ويقولون إنه لمجنون﴾ أى يحسدون محمدا صلى الله عليه وسلم على ما أوتى من فضيلة الوحى ، وكرامة النبوّة ، وهم مع هذا يقولون عنه إنه مجنون ، وهذا القرآن الذى جاءنا به من الهذيان الذى يهذى به فى جنونه ، فكيف يتفق هذا القول مع نظراتهم الدّالة على شدّة غيظهم ، وفرط حنقهم ؟ ! ! وهل تشغل النفوس بالحقد والحسد ، وتُسْجَر القلوب بنار الغيظ والحرد على المجانين إلى هذا الحدّ ! ! كلا ! ماهو عليه الصلاة والسلام بمجنون ، وما قرآنه والوحى المنزل عليه بهذيان ولا فتون ، ﴿وما هو إلا ذكر للعالمين﴾ ، والمشركون يعلمون ذلك ، لكنهم من فرط حسدهم وعداوتهم وحيرتهم يريدون أن ينفروا الناس منه صلى الله عليه وسلم ، ويصرفوهم عن الإصغاء إلى ما أتى به من الحكمة والهدى والحق ، فلم يجدوا أسهل من أن يقولوا : إنه — وحاشاه — مجنون .